الصباح الثقافي

رئيس التحرير
أحمد عبد الحسين

ملحق اسبوعي 16 صفحة www.alsabaah.iq

الأربعاء 24 تموز 2024 العدد 5972 Wed. 24 . Jul. 2024 Issue No. 5972

الدولة والمواطنة في الفكر الفلسفي 02

هل ما زالت ثقافتنا العراقيَّة منعزلة ؟ 04

مكانة النص الديني 06

اللسانيات الإدراكيَّة 08

العنوان في الأدب المعاصر 10

شجرة ذابلة.. وردة عطرة 14

ch.editor@alsabaah.iq

Close
مفاهيم الكبار تربك عالم الصغار

مفهوم الدولة والمواطنة في الفكر الفلسفي

حسن الكعبي

في كتابه المهمّ "الجماعة السياسية والمواطنة" يراجع الدكتور عبد الإله بلقزيز مفهوم الدولة والمواطنة ضمن جذورها الفلسفية، وينطلق في سياق هذه المراجعة والمساءلة لهذه المفاهيم من تحذيرات جان جاك روسو من خطورة تفشي النزعات الفردانية في المجتمعات الحديثة باعتبارها تهديدًا كبيرًا في مسار بناء الدولة، ومن ثم فإنَّ الفردانية بوصفها مفهومًا يحيل إلى العزلة وعدم الانتماء والانفصال فإنها تسهم في تفكك الدولة وتتنزل تلك النزعات ضمن النرجسيات الانفصالية عن الدولة، وبحسب روسو فإنه "حالمًا يقول أحد عن مصلحة الدولة ما شأني بها؟ عندئذ فإنَّ الدولة تكون في عداد الفقدان".

إنَّ تصور روسو للدولة ينطلق من مفهوم ميكروفيزيائي، كما عند ميشيل فوكو، الذي يرى أنه "لا يمكن اختزال السلطة في أجهزة الدولة أو في نظام النخبة على اعتبار أنَّ السلطة مشتتة في كل الجسد الاجتماعي"، بمعنى أنَّ الدولة لا تنفصل عن المجتمع، فالدولة هي المجتمع منظمًا، ومن أفق هذا التصور يحضر مفهوم المواطنة باعتباره- على حد تعبير عبد الإله بلقزيز- "علاقة سياسية بين أفراد المجتمع، و(بين) دولة يشاركون في شؤونها العامة".

فالمواطنة في هذه الحال هي التعارض مع النزعات الفردانية ومن ثم فهي كناية عن المشاركة والانتماء والالتزام بالتشريعات، الأمر الذي يضمن سلامة الجسم السياسي وانسجام عناصره، على اعتبار أنَّ حقوق المواطنة لا تنفصل عن حقوق الوطن، فكلما كان الوطن مُوحدًا ومدمجًا لمواطنيه في وحدة الجماعة السياسية، كانت هناك إرادة للرقي بوضعهم الاجتماعي والاقتصادي، ومن ثم بناء دولة متماسكة لا يمكن أن يطالها الفساد المدني الذي يعتبره بلقزيز النتيجة الحتمية لطغيان الفردانية في تغليبها للمصالح الشخصية.

إنَّ النزعة الفردانية هي التهديد الكبير الذي يطول المواطنة في المنظومات الاجتماعية لكنها- حسب بلقزيز- تظل مصدرًا من مصادر الضغط على مفهوم المواطنة ضمن محيطها الغربي في حين أنَّ التهديد الكبير والضغط على مفهوم المواطنة في المجتمعات العربية يتأتى إضافة إلى الفردانية من البنى الجماعوية الكابحة، التي يصدر عنها الولاء للعرق والقبيلة وللتشكيلات الحزبية أكبر من ولائها للدولة، أو أنَّ الولاء للعرق أو للتشكيلات الحزبية، يكون هو الولاء الوحيد ومفهوم الدولة تأسيسًا على هذا التصور، يقترن بكونها منظومة قمع لا يصدر عنها إلا الشر ومن منطلق هذا المفهوم تنشأ معارضة الدولة ومحاولة تفكيكها من الداخل. وكما يشير بلقزيز فإنَّ هذا هو شأن "المجتمعات المفككة التي تخترقها الطائفية والقبلية من كل اتجاه، والتي ترفع شعار الأمن أولًا، وتؤجل فكرة إصلاح أحوال المواطنين بشكل دائم عملًا بمنطق

الصباح الثقافي
هيأة التحرير

مدير التحرير
نزار عبد الستار

سكرتير التحرير
وسام عبد الواحد

رئيس القسم الفني
مصطفى الربيعي

التصميم
خالد خضير

الاعلانات:
ads@alsabaah.iq
موبايل:
07809174852

العلاقات العامة
موبايل: 07809174853
pr@alsabaah.iq
info@alsabaah.iq

التوزيع والاشتراكات:
موبايل: 07809210536
dist.imn@alsabaah.iq

مطابع شبكة الإعلام العراقي IMN PRESS

الأولويات".

في سياق هذا التعارض فإنَّ مفهوم الدولة يتحول في المخيال الاجتماعي كنموذج ذهني يختزل الدولة وينمطها كرمز للقهر والعنف والتسلط، وهذا النموذج تسرب للمخيال الجمعي عن تصورات فلسفية وفكرية كما عند ماكس فيبر الذي يرى أنَّ بين "الدولة والعنف علاقة حميمة جدًا".

إضافة إلى الأيديولوجيات السياسية التي تحمل هذه النظرة السلبية للدولة، التي انتقدها بلقزيز ومنها المفهوم الليبرالي الذي يرغب في تحجيم سلطة الدولة وتوسيع دائرة حريات الأفراد، إلى جانب المفهوم الماركسي الذي يعتبرها تعبيرًا عن مصلحة الطبقة المالكة، ويغلب عليها مفهوم مصلحة البروليتاريا ومصالحها على حساب مصالح الطبقات، وفي سياق ذلك يتراجع مفهوم الدولة.

يحاول بلقزيز نقد النموذج الذهني الذي يحتجز مفهوم الدولة ويختزلها ضمن مفردات القمع والعنف والتسلط، مؤكدًا أنَّ "وجود الأجهزة القمعية في دولة من الدول، لا يعبر دائمًا عن رغبة هذه الأخيرة في التسلط والهيمنة وفي تضييق الحريات الفردية، وإنما هو واقع يقتضيه منطق الدولة؛ أي منطق قيام اجتماع سياسي منظم يحصل فيه التعايش بين الأفراد والجماعات، ويتحقق فيه السلم والمدنية"؛ إذ من الطبيعي أن توجد في مقابل النزعات الطبيعية العدوانية والتدميرية للإنسان مؤسسات تعمل على ترويض الجسد وأخرى تضطلع بدور تهذيب السلوك. إنَّ أهمية التربية تحظى باهتمام بلقزيز في بناء الدولة، ولذلك فهو يراهن عليها كما راهن فيلسوف العقد الاجتماعي في العصر الحديث على التربية التي تُعلم الفرد احترام القوانين إلى جانب الالتزام بالدين المدني الذي يجعل "من الوطن موضوع عبادة من طرف المواطنين، ويعلمهم أنَّ خدمة الدولة تعني خدمة الإله الحافظ".

ولذلك فهو يؤكد أنَّ "استتباب أمر المواطنة كاستتباب أمر الديمقراطية وقف على إحراز نجاح حقيقي في التربية عليها؛ في ازدراع قيمها في النفوس والأفعال؛ في ترسيخها كثقافة عميقة؛ في تمنيعها من أي كابح يفضي إلى تهشيشها"، ويمكن التعويل في مقاومة هذه الكوابح والتأسيس لمجتمع مواطن على دور كل من الأسرة والمدرسة؛ فهما المصنع الاجتماعي الأول للتنشئة والتكوين، أو المشتل الذي يحدد السمات الجوهرية للكائنات السياسية التي لا تخرج من أرحام الأمهات، وإنما من أرحام المؤسسات، لذلك ينبغي العمل على إعادة تأهيل هاتين المؤسستين، حتى تتحررا من حالة التهالك والسلبية التي تلقي بظلالها على المجتمع بأسره.

بعد مراجعة مفهومي المواطنة والدولة ضمن أصولهما النظرية والفلسفية ضمن المستويات التصورية والإجرائية، يتعرض لوظيفة الدولة كما برزت في فلسفة العقد الاجتماعي، التي بنت فكرة الدولة على أساس الحق الطبيعي للفرد الذي لا ينبغي التنازل عنه بشكل مطلق للدولة (إذا ما استثنينا تصور هوبس) الذي يحدد وظيفة الدولة ضمن وجوب ضمان حرية الأفراد وحماية ممتلكاتهم، وهو التصور الذي عمل بلقزيز على نقده من منطلق أنه لا وجود للفرد إلا في نطاق الدولة، التي لا تتعارض سيادتها مع سيادة الشعب. فرغم تشديد التصور الليبرالي على مبدأ حرية التملك الذي ينبغي للدولة أن تحميه قدر الإمكان، إلا أنه يمكن حسب بلقزيز تكييف مبدأ الملكية الخاصة مع مبدأ سيادة الدولة، من أجل إنتاج نوع من المواءمة بين منطق سيادة الدولة، ومفهوم حقوق المواطنة، بين مبدأ الدولة ومبدأ الفرد، القانون والحرية.

إنَّ نظرية الحق المستندة إلى العقد الاجتماعي في تصورات بلقزيز بحاجة إلى المراجعة من أجل كسب معركة العدالة، كما راهن عليها كل من جون راولز وأمارتيا صن، إذ من الضروري حسب بلقزيز ربط العدالة الاجتماعية بنظرية الحق على اعتبار أنَّ الحقوق الاجتماعية-الاقتصادية وجهان لعملة واحدة هي حقوق المواطنة.

يخلص بلقزيز إلى ضرورة تشريح الخلفية الفكرية الموجهة لعمل المجتمع المدني، والتي رغم كونها ترتدي قناعًا مدنيًا/تنويريًا/إنسانيًا، إلا أنَّ أنشطتها في الواقع ذات حمولة سياسية؛ أي إنها في الأصل تناضل من أجل تحجيم دور الدولة، وهذا يعني أنها تمارس سياسة مضادة للسياسة الرسمية.

كما أنه يشدد على ضرورة توجيه النقد للمجتمع المدني في نسخته العربية وكشف تحكمات الجهل المسيطر عليه، في سياق تمثله للمفهوم "النظري للمجتمع والدولة، على السواء، ولعلاقات الترابط بينهما كما قامت وتطورت، وكما وعتها فلسفة السياسة والفلسفة الاجتماعية، والعلوم الاجتماعية الحديثة". فالتمثل الخاطئ لمثل هذه المفاهيم كما يؤكد بلقزيز وخاصة لدى النخب والقادة، إلى جانب إسقاطها على واقع لا يناسبها، كما هو الشأن للواقع العربي، فهو في تصور بلقزيز يضع مصير الدولة والمجتمع على كف عفريت، ويجعل الدولة أمام اختبارات سياسية واجتماعية مفزعة. يمكن أن تؤدي إلى هلاك الدولة والمجتمع على حد سواء.

ضدّ عقلنة الدين

أحمد عبد الحسين

تنبأ فيتغنشتيان مبكراً للخطر الذي ستؤول إليه النزعة العلموية وهي تحاكم كلّ شيء كما لو كان علماً أو نظرية علمية، وهي نزعة استشرتْ الآن لدى كثيرين بحيث بات لفظ العلم أشبه ما يكون بالعدسة التي يُنظر من خلالها لكلّ الملفوظات "الأدبية والدينية والإنسانية" فتبدو صغيرة ضئيلة بإزاء الرهبة التي يستدعيها اسم العلم بمحموله الجديد الذي صار يعني الحقّ الذي يجب على كلّ نتاج إنساني بلوغه لتكون له حصة من الحقيقة.

تتقزم النتاجات الأدبية والدينية "الدينية تحديداً" حين تحاكم وفقاً لهذه العلموية، بحيث يبدو النصّ الديني كما لو أنه علمٌ لم ينضج بعدُ، أو محاولة في النظرية العلمية أنتجها عقل بدائيّ. وبديهيّ أن الملفوظ الدينيّ لا يستوفي شروط لغة العلم لأنه لم ينجز لهذا الغرض أولاً، ولأنّ شروطه ورهاناته تلعب في ساحة أخرى مختلفة تماماً عن المجال الحيويّ الذي تلعب فيه اللغة العلمية. ذلك ما جعل كثيرين يرون في الدين بعامة محض مصادرات "لا أدلة وافية عليها" وبالتالي فهي بلا معنى.

انطلق فيتغنشتيان في معارضته لهذا النزوع العلمويّ من تبيان أن المعنى ليس سرداً ناجزاً يُحاكَم وفقه كلّ ما يريد أن يحوز معنى له، بل هو نمط أداء تداوليّ تحدده الأدوار التي يلعبها في حياة الناس ومصائرهم. كتب عن "سخف" النظر إلى فكرة اختبار وجود الله مثلاً كما لو كنّا نمتحن نظرية فيزيائية أو كيميائية في مختبر لنرى إن كانت تتوافق مع معيار العلم أم لا. وازدرى الفكرة القائلة إنّ كل ما يمكن التلفظ به يجد كماله في التحوّل إلى نظرية علمية وإلا فقد حقه في الاعتراف به.

"عقلنة" القضايا الدينية أمر بالغ السذاجة وإن اكتسى رداء الحرص ورفع شعار "مواكبة العصر"، لأنه في الأساس نتاج شعور بالتقزّم أمام غول "العلم" الذي لا حقّ لأحد في الوجود إلا بعد نيل موافقة صريحة منه.

في تراثنا القريب محاولات مستميتة لمواءمة الدين بالعلم، ابتدأها الإصلاحيون منذ محمد عبده ومرّ عليها كتبة إنشاء كسيد قطب وتلقفها الإسلاميون اليوم، وبعض هذه المحاولات بلغتْ سذاجتها حدّ الإضحاك حين أراد بعضهم أن يعقلن وجود الجنّ فقال إنها "الفايروسات"، كما تجدها في الكتب الكثيرة التي وضعت لإثبات الإعجاز العلميّ في القرآن، وكلّها تصدر عن عقول فقيرة المعرفة بالعلم والقرآن معاً.

حلّ فيتغنشتيان هذه المعضلة بأن ردّ كل ملفوظ إلى ساحته التي يلعب بها، فما هو دينيّ يمتلك تأثيراً مختلفاً على الناس عن التأثير الذي يقوم به العلميّ لأنّ كلاً منهما يشتغل في منطقة لا صلة لها بالأخرى، والأدوات التي يلعب بها النصّ العلمي ليست أدوات الدين أو الأدب. وأية محاولة لمقايسة أحدهما بالآخر ستظهر الدين والأدب ملفوظات غبية تحاول أن تكون علماً ولا تستطيع.

كان فيتغنشتيان يحب هذه الجملة: "الله لا يحتاج إلى رأس وإلا كان رأس القرنابيط يفي بالغرض. الله يحتاج إلى قلب".

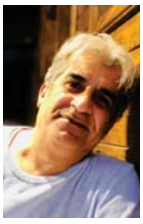

حروبٌ وحصارٌ وانفتاحٌ في 40 عاماً

هل ما زالت ثقافتنا العراقيَّة منعزلة؟

صفاء ذياب

في العام 2021، كان العراق ضيف شرف معرض الرياض، في خطوة مهمّة للثقافة العراقية، وإخراجها من محلّيّتها، وعودتها إلى الحاضنة العربية، وبعد سنتين أيضاً كان العراق ضيف معرض تونس للكتاب، غير أنَّ المعرضين لم يقدّما أيّة صورة حقيقية عن الثقافة العراقية، وهذا راجع للتفكير الذي تديره المؤسسات العراقية في تقديم ثقافتنا التي حصرتها تلك المؤسّسات بالأدب فقط، فتمّت دعوة شعراء وقصاصين ونقاد، وبعض الأكاديميين من تخصصات مختلفة.

في العام الذي تلا الدعوة العراقية، كانت تونس ضيف شرف معرض الرياض، وهنا كانت المفارقة، فعلى مدى 12 يوماً كانت الفعاليات التونسية تملأ أرجاء المعرض ما جعل الكثير من المعنيين وغير المعنيين بالكتاب يأتون لزيارة قاعات معرض الرياض لمشاهدة الفعاليات التونسية التي ضربت رقماً قياسياً في التنوّع، فقدّمت الفرق الشعبية الراقصة، والغنائية، وعروض مسرحية، وفعاليات فولكلورية، فضلاً عن فعاليات أخرى من الصعب حصرها، فتم نقل تونس بثقافتها وفنونها إلى أرض معرض الرياض. في حين اكتفت الوفود العراقية في المعرضين: الرياض وتونس، بالآداب، وربَّما هو ما أضاع وجود الثقافة العراقية، لأنَّها لا تنحصر بالأدب بقدر انفتاحها على الفنون كلّها.

ففي الوقت الذي كانت الثقافة العراقية ما قبل العام 2003 محصورة داخل العراق بسبب حصارين: محلي ودولي، كان المثقفون العراقيون يأملون أنَّ هذه الثقافة ستخرج بعد التغيير إلى المحافل العربية والعالمية؛ إن كانت على مستوى الآداب أو الفنون، غير أنَّ هذا لم يحدث بالفعل.. كيف نقرأ أسباب ذلك؟

ثقافة نرجسية

يعتقد الدكتور ياسر البراك أنَّ العزلة الكبيرة التي عاشها المثقّف والفنان العراقي منذ وصول صدام حسين للسلطة وحروبه العبثية، فضلاً عن الحصار الاقتصادي، كلها انعكست بشكل كبير على عزلة الثقافة العراقية محلّياً ودولياً سواءً قبل العام 2003 أو ما بعده، وأغلب الذين استطاعوا الانفلات من هذه العزلة وحقّقوا حضوراً عربياً أو دولياً عملوا بجهودهم الذاتية أو بدعم من بعض المؤسّسات الثقافية عبر العلاقة الشخصية مع القائمين على تلك المؤسسات، لذلك حقّق بعض الأدباء جوائز عربية، وكذلك فعل الفنّانون في ميادين السينما والمسرح والتشكيل والموسيقى، والسبب الرئيس- في ظنّ البرّاك- أنَّ ثمَّة خللاً بُنيوياً في أصل العلاقة بين السلطة والثقافة والفن في العراق. ففي الوقت الذي كانت فيه الثقافة والفنون مؤدلجة قبل الاحتلال بين مسارين أحدهما يساري- شيوعي والآخر قومي- بعثي مع غياب ملحوظ لمسار الثقافة الإسلامية، فقد أصبحت الثقافة والفنون ما بعد ذلك مشتتة وضائعة وفردية في ظلّ تشتّت وضياع الهوية الوطنية بعد ضياع مفهوم الدولة وسط هيمنة الهويات الفرعية وصعود ثقافاتها من الهامش إلى المركز، ناهيك عن وقوع وزارة الثقافة ومؤسّساتها المختلفة والاتحادات والنقابات المهنية المعنية بالثقافة والفنون في خانة المحاصصات السياسية والحزبية والمناطقية، الأمر الذي جعل منها ثقافة نرجسية تعتمد على تحقيق الذات من دون التفكير بانعكاساتها على البنية الاجتماعية، فصار الشاعر يكتب لنفسه، والقاص والروائي ينتظر مديح النقّاد، والمسرحي والسينمائي يأمل بالحصول على سفرة سياحية متخذاً من عمله الفني جسراً لذلك، لذلك يمكن القول إننا إزاء ثقافة هجينة هاجسها الرئيس الأنا الفردية الباحثة عن الشهرة أو المال ليس إلاّ، مع استثناءات قليلة طبعاً.

قيود أيديولوجية

ويرى الدكتور رحمن غركان أنَّ الفنون؛ ومنها الآداب، مشاريع شخصية، لأنَّها نبوغ فردي، قد تمدُّ له المؤسسة أو التنظيم شبه المؤسّساتي عوناً، ولكنها لا تصنعه بمعزل عن فرديته، ولا من دون نبوغه وممكناته الاستثنائية، والفنون والآداب العراقية بعد 2003 ذات حضور عربي وعالمي بقدر ممكنات التسويق الإعلامي المتواضع إلى عالم التلقي الهائل، وهو ما يقوم به المبدع أولاً وإعلامه المحلّي ثانياً، وهو تسويق أقل من

د. رحمن غركان

د. ياسر البراك

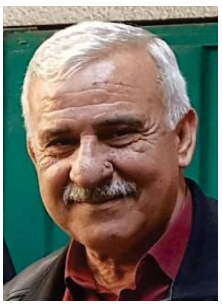
سعد سعيد

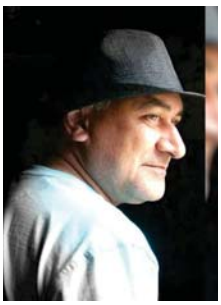
جمال علي الحلاق

علي سعدون

صدام الجميلي

النوع الإبداعي المنجز، لأنَّ مشكلة الثمين في الفن والحياة الزهد بالدعاية والإعلان الدالّين عليه، وأرى الدعم المؤسّساتي لا يبنى على خطط ومشاريع تسويق مناسبة، بل أقرب إلى الارتجال واستغلال المناسبات ذات المرور القصير العاجل، لأنَّ هائل وسائل الإعلام: الأهلي منها والحكومي، تملأ على عالم التلقي الفضاء، ويغطّي الكم السلبي على النوع حتَّى بلغ منه مرتبة الطرد!! عناية المتلقي بمنجزات الآخر في العالم جاءت على حساب المنجز المحلّي أيضاً، وهناك منافسة هائلة في المعروض الإبداعي الذي يحرص فيه صاحبه على تمثّل عصره بعناية باعثة على الالتفات إليه والعناية بقراءته. على حين لا يجد الفنان والأديب حرية تسع التعبير عن متبنياته بإبداع يغري الآخر المختلف، العربي منه والعالمي بمتابعته والوقف عنده، لأنَّ حرية المنجز النوعي عندنا ولاسيّما في الفنون والآداب لم تتحرر من القيود الأيديولوجية.

أوهام ثقافية

من جهته، يكشف الناقد علي سعدون أنَّ الثقافة العراقية وعلى مدى عقود أربعة، كانت تركن إلى نوع واحد من التثاقف بسبب هيمنة هائلة للسلطة شديدة المركزية بحمولات أيدلوجية قامعة، الأمر الذي جعلها تنغلق على نفسها بشكل مطلق، إلّا بالنزر اليسير الذي استطاع أن يعبر حدود ما كان مغلقا وعصيّا على الانفتاح. وهو أمر طبيعي استناداً لمعطيات سياسية كانت تدسُّ أنفها في التفاصيل الثقافية. ناهيك عن أثر الحصار والعقوبات الدولية على العراق التي مهّدت لخراب طويل في بنيتها وفي إنتاجها واستهلاكها.

الأمر المحزن والمخيّب للآمال أنّ فرصة التغيير في مفاصل الحياة كلّها وبضمنها الثقافة بعد الاحتلال، لم تكن سوى وهم من أوهام ثقافتنا، بسبب صعود نجم عدد من العسكريين والموظفين وأرباب المهن الأخرى البعيدة عن هموم الثقافة وتطلّعاتها إلى سدّة القرار في مؤسّساتنا الثقافية وزراء ومديرين.

فخذ مثلاً، إلغاء وزارة الثقافة لواحدٍ من أهم قطّاعاتها وهي شركة التوزيع الوطنية التي كانت تتكفّل بتوزيع المطبوعات العراقية داخل وخارج العراق، هي بحكم الواقع غير موجودة الآن. وبلا بديل.

وعلى الرغم من فعل الطباعة والنشر في المؤسّسات والاتحادات العراقية واستمرار إنتاجه بغضّ النظر عن الحجم والنوع وجودة المطبوع، لا قدرة لمؤسّسة أهلية أو حكومية في أن تأخذ على عاتقها مهمة تسويق الكتاب ونشره والترويج إليه باحترافية أسوة بما يحصل في دول مجاورة..

ثمة حاجة ضرورية اليوم لتتبنّى الدولة تأسيس مجلس أعلى للثقافة للارتقاء بالواقع الثقافي وإيصال صوته إلى أقصى المديات عربياً وعالمياً، ومثل هذا الإجراء كفيل بأن يعيد للثقافة أفقها الحقيقي وسمعتها التي كانت في يوم ما أكثر إشراقاً وتوهجاً..

فساد مستشرٍ

وبحسب الفنان التشكيلي صدام الجميلي، فإنَّ السبب الرئيس في عدم تصدير الثقافة العراقية في وقت يتاح لدول العالم كلّها أن تقدّم مبدعيها للعالم يرجع للفساد السياسي في العراق الذي ينعكس على الفساد الثقافي والإداري. وذلك لكون المؤسّسة الثقافية العراقية تعاني من مشكلة الجهل الإداري والمؤسّساتي، إذ تعجز المؤسّسات الثقافية العراقية عن إنتاج ثقافة رصينة واحترافية معاصرة في الداخل، فما بالنا في تصدير تلك الثقافة، فلا يمكن تصدير منتج لا يتوفّر على أبسط مقومات الإنتاج الاحترافي المعاصر من إبداع وطباعة وتسويق وعلاقات مرموقة.. وذلك لكون الثقافة العراقية تهرول خارج السياقات العالمية. وبالتالي لا يمتلك الإداري أيّة مقومات لمعرفة آليات إنتاج الثقافة المعاصرة وأشكالها الجديدة في العالم. ومن ثمَّ لن تتوفر للثقافة العراقية أن تجد فرصة في المحافل الثقافية، إلّا إذا كان الموضوع فردياً يعتمد على خبرة المبدع نفسه. وهذا ليس سهلاً لمن هم في الداخل.

فما تزال الثقافة العراقية عاجزة عن إنتاج مهرجان مثل مربد السبعينات وبينالي بغداد للفنون، وذلك لتصدّي عديمي المعرفة والمطّلعين على ثقافة العالم اليوم. كما أنَّ عالم المحسوبيات والطائفية يفتك بحصان المؤسّسة التي لا تستطيع جرَّ العربة الثقافية إلى مكانها الصحيح، إذ يهتم المسؤول الثقافي بطائفة المبدع لئلا يتفوّق غيره من الطائفة الأخرى، بل وصل الحد ببعضهم إلى محاولة احتكار وتحويل التاريخ إلى طائفة ما. فإنَّ انشغال المسؤولين في صراعات داخلية يشغلهم عن التفكير في الخارج.

تكتلات فئوية

ويشير الشاعر والكاتب جمال علي الحلاق إلى أن الأمر قد لا يبدو بهذه السهولة، ويقصد إمكانية تشخيص الأسباب التي تقف وراء ذلك، فالتناحر الغبي، سواء ببعده الطائفي، أو المناطقي والعشائري قد قاد إلى خلق تكتّلات فئوية تزداد ضيقاً وانشطاراً مع الوقت، وهذا كلّه يقف عائقاً حقيقياً أمام نشر البعد الثقافي عالمياً، ومع هذا فالسؤال الذي يمكن أن يُطرح الآن: من المؤسّسة الحكومية المسؤولة إداريّاً عن عملية إطلاق وتحرير الثقافة ببعدها الأشمل من حَجْرِها المحلّي إلى الفضاء العالمي؟ وبالتأكيد فإنَّ وزارة الثقافة السياحة والآثار- في الدرجة الأساس- من يقع عليها عبء القيام بهذا الدور الخطر والمهم.

ويضيف: نشر الثقافة عمل وظيفي إداري قبل أن يكون عملاً إبداعيّاً، يبدأ العمل محلّياً، أي أن تتبنّى القنوات الإعلاميّة للدولة تكريس هذا الأمر على صعيد الداخل، عبر إقامة نشاطات ومهرجانات ومعارض دورية، ثمّ ينفتح العمل ويأخذ مديات أكثر سعة بالاعتماد على المكاتب الثقافية الواجب توفّرها ضمن بنية السفارات والقنصليات الحكومية التي تمثّل البلد هنا وهناك على سطح الكوكب. أن يكون هناك نشاط ثقافي دوري بالاشتراك مع المؤسّسات الثقافية المضيّفة أو الحاضنة. في بعض البلدان الغربية تتبنّى وزارة السياحة عملية طبع دواوين شعراء من البلد لأنّهم يمثّلون جزءاً من الواجهة السياحية للبلد ذاته. عملية التسويق هنا مهمّة جدّاً، وتتطلّب وعياً منفتحاً شاملاً للأطياف الثقافية التي تخلق الضوء كلّها، وليس الانحياز لجهة دون أخرى.

صدمة الانفتاح

ويبيّن الدكتور علي ياسين أن للحصار قبل 2003 دوره الفاعل في حجب العراق عن فاعليته كبلد مؤثّر، وتحويله إلى ما يشبه كأس الزبادي المنعزل عن عالمه الخارجي، ولاسيّما في المجال الثقافي الذي عملت سنوات الحصار على تكريسه لخدمة رؤية شمولية تمجّد حاكماً مستبدّاً. الأمر الذي أضعف دور المؤسّسات العلمية والتربوية والثقافية والنقابية لتنهض بمسؤوليتها في ترصين الوعي وتحديثه، فظلَّ الأدباء يتوقون للحظة تواصل مع العالم العربي والإنساني بدون أن يمتلكوا التأهيل الكامل لشرعية هذا التواصل الذي ازدهر فيه إنتاج طرف على حساب طرف آخر، وبالتالي وجد أدباء العراق أنفسهم بعد 2003 يدورون في دائرة مفرغة ويتعاطون هموماً لم تنهض معالجاتها لتجاوز المحلّي إلى الإنساني بسبب محدودية الرؤية عند الغالبية وضيق الأفق، إذا ما قورنت هذه المعالجات بإبداعات الستينيين وسنوات النهوض في هذا العقد والعقد الذي تلاه... باختصار كانت صدمة الانفتاح بعد 2003 أكبر من أن تتصدّى لها متاريس الأدباء الهشة والرخوة.

مدّعو الثقافة

ويختتم الروائي سعد سعيد حديثنا بقوله إنَّ هذا يفضح خللاً كامناً في ما يدعى بالثقافة العراقية، سواء أكان في الفهم أو في التعريف، فلطالما ادعى العراقيون تميّز البعض منهم، وفي معظم الأحيان لسبب مصلحي أو انفعالي، ولكنَّ هؤلاء لم يتركوا الأثر المطلوب في الثقافة العربية أو العالمية، وهذا يؤشّر الخلل، ولكنَّ أنصارهم يميلون إلى ادعاء المؤامرة، ولم أفهم يوماً أين المؤامرة والدلائل كلّها تشير إلى أنَّ المجتمعات المحيطة بنا كانت تميل إلى استقبال العراقيين بلا عقد وأحقاد. ما عدا حالات نادرة لها مسوّغاتها طبعاً.

ويضيف: أنا لا أقول بأنه لا وجود لثقافة عراقية، بل إنَّ أرض العراق حضارية ولا يمكن أن تخلو يوماً من مثقف أو فنان أو عالم، ولذلك أزعم بأنَّ المشكلة تكمن في الجهل الغالب على المجتمع الذي أنتج حكومات تميل إلى التسلّط وخنق الحرّيات، والمثقف كما هو معروف لا يستسيغ أن يكون أداة السلطة، فتضطر هذه إلى تقريب أنصاف المثقفين ليحلّوا محلّه، وتصنعهم بنفسها كواجهة حضارية لنفسها كما تقتضي مصالحها.

الموضوع طبعا أكبر بكثير من أن نحصره ببضعة كلمات، ولذلك أكتفي بالقول، ابعدوا المدعين عن الثقافة، وتقبلوا المثقفين الحقيقيين كما هم من دون محاولة التأثير فيهم وتغيير آرائهم، يصبح للثقافة العراقية شأن في الخارج.

مكانة النصّ الديني
في المصادر المعرفيَّة لعلمِ الكلام الجديد

د. طه ياسين

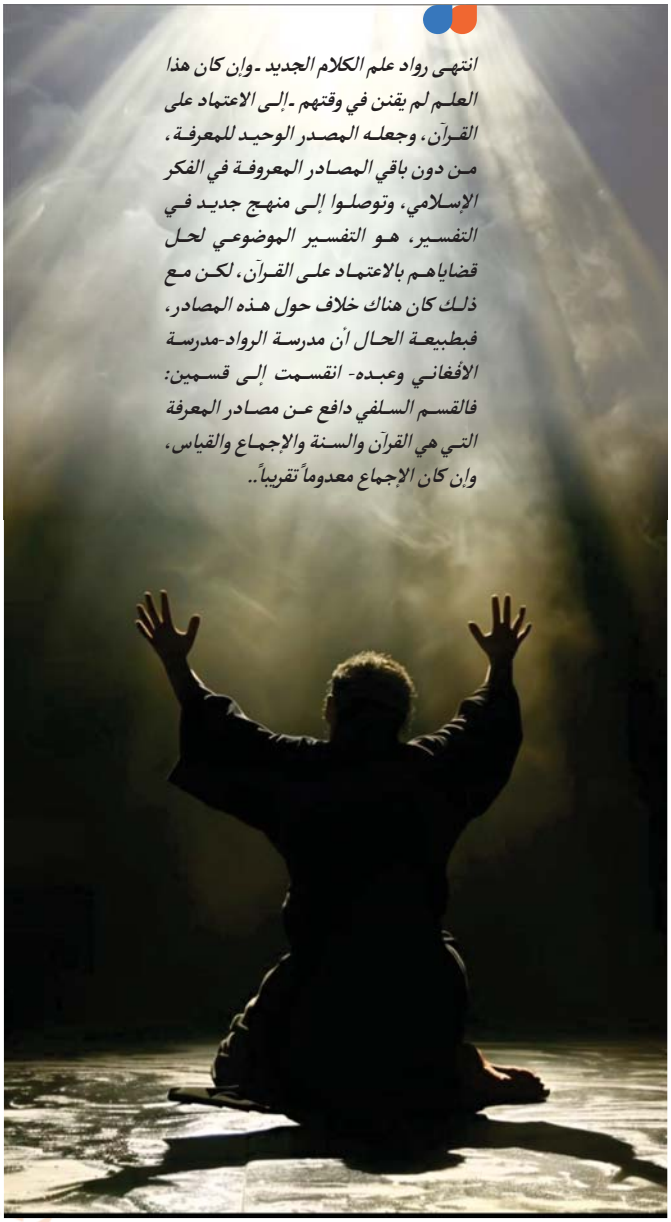

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك من جعل القرآن هو المصدر الوحيد للمعرفة وشكك بالسنة ولم يجعلها في القسم التشريعي، وهؤلاء من أتباع هذا القسم- السلفي- وسنرى من خلال البحث ما هي الأسباب التي جعلتهم يعتمدون فقط على القرآن، والقسم الثاني وهم الاتجاه الحداثي، اعتمدوا على القرآن لكنهم أخضعوه للتأويل- أنسنوه-على اعتبار أن مدار علم الكلام الجديد هو الإنسان، وصاحب هذا الصراع خلاف حول العقل والنص وأيهما يقدم على الآخر، كما أن القسم الأخير اختار الهرمنيوطيقا على التفسير الموضوعي، على اعتبار أن أحكام القرآن هي تاريخية لا يمكن تعميمها على خارج زمانها ومكانها، وهذا الصراع الداخلي هو ليس بجديد على علم الكلام، فهو موجود عند المتكلمين القدماء كما هو الحال عند المتكلمين الجدد، وطبعاً هذا الصراع لم يتجاوز القرآن عند كلا الفريقين، اللهم إن كان هنالك فرق بين القديم والجديد فهذا الفرق يتمثل بالفرق والمذاهب.

وأولى هذه الإشكاليات هي إشكالية تعارض العقل والنقل. إن إشكالية تعارض العقل والنقل لم تنبع أصلاً من داخل العقل الإسلامي الذي تشكل بتأثير الخطاب القرآني، ولكنها طرأت نتيجة لتأثر الفكر الإسلامي بالعقل الإغريقي الثاوي في الفلسفات الإغريقية، ذلك أن المدقق في الخطاب القرآني يلحظ استنكار القرآن الشديد للعقلية الآبائية الرافضة للوحي المنزل، استناداً إلى مرجعية تاريخية وأحكام موروثة عبر الأجيال.

فتاريخنا لم يعرف قضية بهذا الاسم إلا بعد عصر الترجمة، بل إن تاريخنا لم يكن يعرف شيئًا اسمه نص وشيئًا اسمه عقل، متمايزين يعيشان حالة صراع وتناقض وتناف وحرب ومعركة بين الاثنين. كان النص والعقل يسيران معاً جنباً إلى جنب، خاضعين لحاكمية الله المطلقة، النص يرشد العقل ويوجهه، والعقل يتفهم النص ويستوعبه ويحسن تطبيقه وفهمه وربطه بالواقع، من دون أي عملية صراع.

إذن، فالتعارض بين العقل والنقل هو ميراث كنسي أوروبي، ولا يمكن فهمه إلا في هذا الضوء، لأن إفراد النقل بطبيعة خاصة، والعقل بطبيعة أخرى، لا يعني بالضرورة التعارض أو التناقض، فنحن لا نقول إن السمع يعارض النقل، وإنما نرى لكل واحد وظيفة خاصة تتميز عن الأخرى، ويمكن أن يكونا مكملين، ولكن صفحات متوالية ودامية توالت عبر التاريخ الأوروبي وتغلغلت عميقاً في الفكر الأوروبي أبرزت النقل والعقل، كما لو كانا متناقضين، وقد حدث هذا قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون، واستمر حتى مشارف العصر.

لقد حاول كثير من حملة الفكر الإسلامي في الماضي، معالجة هذا الأمر والرد على من اتهموا الإسلام بمثل التهم الموجهة إلى الكنيسة، من التقليل من شأن العقل وغمطه حقه، وإعلاء شأن الخرافة، وذلك حين واجهوا بيئة فكرية جامدة رفضت الاجتهاد وتشبثت بالتقليد، وأنكرت على العقل دوره، وأخذت تعتبر الاجتهاد تهمة وإبداء الرأي أو الاجتهاد اقتحاماً للنار، وهدماً للدين.

ومن القواعد المقررة في الدين الإسلامي أن العقل الصريح لا يخالف النص الشرعي الثابت، والمعقول الصحيح دائر مع أخبار الشريعة وجوداً وعدماً، فلم يخبر الله رسوله(p) بما يناقض صريح العقل، ولم يشرع ما يناقض الميزان والعدل.

في الحقيقة، أن الفكر الإسلامي المعاصر انقسم في مسألة العقل والنقل إلى ثلاثة أقسام: منهم من يقدم النقل على العقل، ومنهم من يقدم العقل على النقل، ومنهم من يجمع بين الاثنين ويقضي بأن العقل والنقل متفقان لا يختلفان، كما أن هناك من تذبذب بين تقديم النقل والعقل، فتارة يقدم النقل وتارة يقدم العقل، وسنحاول أن نوضح آراء هؤلاء في هذه المسألة، وإذا كانوا في الوقت الحالي ثلاث فرق، فهم في زمن الغزالي خمس فرق، حيث يقول: "بين المعقول والمنقول تضاد في أول النظر، وظاهر الفكر، والخائضون فيه تحزبوا إلى مفرط بتجريد النظر إلى المنقول، وإلى مفرط بتجريد النظر إلى المعقول، وإلى متوسط طمع في الجمع والتلفيق، والمتوسطون انقسموا إلى من جعل المعقول أصلاً، والمنقول تابعاً، فلم تشتد عنايتهم بالبحث عنه، وإلى من جعل المنقول أصلاً، والمعقول تابعاً، فلم تشتد عنايتهم بالبحث عنه، وإلى من جعل كل واحد أصلاً، ويسعى في التأليف والتوفيق بينهما، فهم إذن خمس فرق".

وقد خرج الفخر الرازي من هذا التذبذب بتقديم العقل على النقل، حيث يقول: "إذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية، أو السمع والعقل، أو النقل والعقل، أو الظواهر النقلية والقواطع العقلية، أو نحو ذلك من العبارات، فإما أن يجمع بينهما وهو محال، لأنه

جمع بين النقيضين، وإما أن يردا جميعاً، وإما أن يقدم السمع وهو محال، لأن العقل أصل النقل، فلو قدمناه عليه كان ذلك قدحاً في العقل الذي هو أصل النقل، والقدح في أصل الشيء قدح فيه، فكان تقديم النقل قدحاً في النقل والعقل جميعاً، فوجب تقديم العقل، ثم النقل إما أن يتأول وإما أن يفوض، أما إذا تعارضا تعارض الضدين امتنع الجمع بينهما ولم يمتنع ارتفاعهما".

وقد أثيرت مسألة النقل والعقل في العالم العربي في الوقت المعاصر، بعد أن افتتن العالم الغربي بالعقل البشري، وجعله نداً للوحي في هداية الإنسان، وقد صاحب هذا هجوم المستشرقين على التصور الإسلامي وعقيدة القضاء والقدر فيه، وقد أراد أصحاب المدرسة العقلية متمثلة بمحمد عبده، إثبات قيمة العقل تجاه النص، وإحياء فكرة الاجتهاد، وهناك من يرى أن محمد عبده مال إلى الغلو عندما أراد أن يثبت لأصدقائه المستشرقين أن أصول الإسلام لا تتعارض مع المنطق والعقل.

وهذه المدرسة وما كان امتدادا لها، أعطوا المساحة الكافية للعقل، وإن كانوا لا يتجاوزون النص، ويتخذون العقل حكماً ودليلاً في أمور الدين كلها، وقد وجدوا بعض التفاسير كما أسلفنا القول مليئة بالخرافة، وما يناقضه العقل من الأقوال فنقدوه وأبطلوه، ووجدوا في معظمها إيماناً وتسليماً بما لا يدركه العقل فأولوه، ليتفق مع العقل، وهذه فرصة لاستعراض آراء الفكر الإسلامي منذ تشكله وصولاً إلى الوقت الحاضر في هذا الموضوع، ونلاحظ التحولات التي طرأت عليه.

من الوجهة النظرية البحتة، أن التشريع الإسلامي في الأصل تشريع سماوي، يصدر عن الله سبحانه وتعالى، والإرادة الإلهية نقلت إلينا توجيهاتها بوسيلتين: وسيلة مباشرة هي القرآن الكريم، والوسيلة الأخرى غير مباشرة تمثلها السنة النبوية، وهي الأعمال والأقوال المنقولة عن رسول الله(p)؛ فالقرآن والسنة هما المصدران الأساسيان للتشريع، وقد أضاف الفقهاء على هذه المصادر، مصدرين آخرين هما الإجماع والقياس.

غالى المعتزلة قديماً في العقل، فمنحوه سلطة مطلقة، وجعلوه حكماً في كل الموضوعات دينية كانت أو علمية، فالعقل عندهم هو المرجع، وهو الأساس، وهو الرائد، فإذا تحاكموا فإلى العقل، وإذا حاجوا فبحكم العقل، ، يقررون ما يرشد إليه، وينبذون ما يخالفه من دليل النقل، أو يؤولونه ليتماشى مع العقل.

أما بالنسبة للأشاعرة فقد تذبذبوا في التقديم والتأخير ومنهم الباقلاني والجويني، كذلك نجد هذا التذبذب عند الغزالي حيث يقول: "واعلم أنا إذا حققنا النظر بان أن أصل الأحكام واحد، وهو قوله تعالى، إذ قول الرسول(p) ليس بحكم ولا ملزم، بل هو مخبر عن الله تعالى أنه حكم بكذا وكذا، فالحكم لله تعالى وحده، والإجماع يدل على السنة، والسنة على حكم الله تعالى، وأما العقل فلا يدل على الأحكام الشرعية، بل يدل على نفي الأحكام عند انتفاء السمع، فتسمية العقل أصلاً من أصول الأدلة تجوز". ونجده في موضع آخر يقول: "فإن العموم يفيد ظناً، والقياس يفيد ظناً، وقد يكون أحدهما أقوى في نفس المجتهد، فيلزمه اتباع الأقوى". والمقصود بالعموم هنا هو عموم الكتاب. وكذلك يقول: "كل ما دل العقل فيه على أحد الجانبين فليس للتعارض فيه مجال، إذ الأدلة العقلية يستحيل نسخها وتكاذبها، فإن ورد دليل سمعي على خلاف العقل، فإما أن لا يكون متواتراً، فيعلم أنه غير صحيح، وإما أن يكون متواتراً فيكون مؤولاً، ولا يكون متعارضاً، وأما نص متواتر لا يحتمل الخطأ والتأويل وهو على خلاف دليل العقل، فذلك محال لأن دليل العقل لا يقبل النسخ والبطلان". وهذا ما يذهب إليه الرازي في "أساس التقديس".

ولا يشك ابن رشد في موافقة العقل للنقل؛ بل نراه يقطع بأن العقل البرهاني لا يضاد الشرع، حيث يقول:" وإذا كانت هذه الشريعة حقاً، وداعية إلى النظر المودي إلى معرفة الحق، فإنا معشر المسلمين، نعلم على القطع، أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له".

إن الفكر الأشعري لم يخالف قاعدة تقديم النص على باقي الأدلة، إلا أن هذا التقديم تذبذب وخصوصاً في مسألة السياسة، فنجده تارة يقدم النص وتارة يقدم الإجماع وتارة يقدم الاختيار. وهذا خلاف ما يشاع عن الفكر الأشعري، أنه قدم النص على العقل، وعليه لم يقم المذهب الأشعري على أصول واضحة في المنهج، وإنما على التذبذب. وهناك من يصرح بأن هذا المذهب لم يبق على حاله، وإنما تطور تطوراً سريعاً، جعله يعود إلى العقل، ويجعل منه الدليل الأول، حتى إنه اعتبره قبل النص. لكن هذه العقلنة لا نجدها عند مصطفى عبد الرازق الذي يذهب إلى أن الأشعري اختار الوسطية وتابعه الأشاعرة في ذلك حتى متأخريهم.

أما بالنسبة للشيعة الإمامية، فقد افترقوا بالنسبة إلى الاجتهاد واستنباط الأحكام إلى فرقتين: أصوليين أو مجتهدين، وإخباريين أو محدثين.

أما الأصوليون، فقد بين صاحب "جامع السعادات" مكانة العقل عندهم، لكنه قبل ذلك أكد على إنه يجب أخذ العقائد من الشرع والعقل، حيث يقول: "وأما أصول العقائد فيجب أخذها عيناً من الشرع والعقل، وهما متلازمان لا يتخلف مقتضى أحدهما عن مقتضى الآخر، إذ العقل هو حجة الله الواجب امتثاله والحاكم العدل الذي تطابق أحكامه الواقع ونفس الأمر، فلا يرد حكمه، ولولاه لما عرف الشرع... فالعقل هو الشرع الباطن والنور الداخل، والشرع هو العقل الظاهر والنور الخارج". كما أن الشيخ الأنصاري وهو من متأخري الأصولية يصرح بملازمة العقل للنقل فيقول:" إن الحق -كما هو عليه المحققون- ثبوت الملازمة الواقعية بين حكم العقل والشرع، وهذا الحكم هو مفاده قولنا: كل ما حكم به العقل حكم به الشرع".

وما يتراءى في بعض المواضيع من التخالف بينهما إنما هو لقصور العقل أو لعدم ثبوت ما ينسب إلى الشرع منه، فإن كل عقل ليس تاماً، وكل ما ينسب إلى الشرع ليس ثابتاً منه، فالمناط هو العقل الصحيح وما ثبت قطعاً من الشريعة، وأصح العقول وأقواها وأمتنها وأصفاها، هو عقل صاحب الوحي. وقد أشار صاحب كتاب "الحدائق الناضرة" إلى مدارك الأحكام عند الأصوليين وعدها أربعة: "الكتاب والسنة والإجماع ودليل العقل". نلاحظ هنا أن الأصوليين من الشيعة يساوون بين النقل والعقل من جهة، ومن جهة أخرى يجعلون العقل رابع الأدلة الشرعية. في حين نجد أن الشيخ المفيد يقدم النقل على كل شيء، حيث يقول: "وكتاب الله تعالى مقدم على الأحاديث والروايات، وإليه يتقاضى في صحيح الأخبار وسقيمها، فما قضى به فهو الحق دون ما سواه".

أما الإخباريون من الشيعة، فقد اقتصروا على الأخبار الواردة في الكتب الموثوقة في نظرهم وجمدوا على ظواهرها، مدعين أن تلك الأخبار مقطوعة الصدور عن الأئمة، رغم ما فيها من اختلاف وتعارض، ومنعوا الاجتهاد، ولم يجيزوا التقليد، وعابوا على إخوانهم الأصوليين الاجتهاد، ورموهم بالخروج عن المذهب، ومشايعة العامة، وهاجموا علم الأصول، وحظروا الاشتغال به، مدعين أن مبانيه كلها عقلية لا تعتمد على الأخبار. فالذي وقفنا عليه من كلام متأخريهم ما بين إفراط وتفريط، فمنهم من منع فهم شيء منه مطلقاً حتى مثل قوله: (قل هو الله أحد)، إلا بتفسير من أصحاب العصمة(u)، ومنهم من جوز ذلك حتى كاد يدعي المشاركة لأهل العصمة في تأويل مشكلاته وحل مبهماته. إذن هناك أصوليون يوفقون بين العقل والنقل تارة، وتارة يقدمون النقل ويجعلون العقل رابع الأدلة، وهناك إخباريون، يعودون بكل شيء إلى المعصوم وهم مقسومون إلى قسمين أيضاً.

أما المذهب الزيدي، فإنهم يقدمون العقل على القرآن، إذ جاء في "الفصول اللؤلؤية للأصول الزيدية لصارم الدين الوزير": "وكيفية الاجتهاد في الحداثة، أن يقدم المجتهد عند استدلاله قضية العقل المبتوتة، ثم الإجماع المعلوم، ثم نصوص الكتاب والسنة المعلومة، ثم ظواهرها كعمومها، ثم نصوص أخبار الآحاد، ثم ظواهرها كعمومها، ثم مفهومات الكتاب والسنة على مراتبها، ثم مفهومات أخبار الآحاد، ثم الأفعال والتقديرات كذلك، ثم القياس على مراتبه، ثم ضروب الاجتهاد الأخرى، ثم البراءة الأصلية ونحوها". إن هذا الكلام يستفاد منه أن قضايا العقل القطعية هي في المرتبة الأولى، كما يستفاد منه أن الإجماع المتواتر المجموع به مقدم على نصوص القرآن الكريم والسنة المتواترة والمعلومة.

يأخذ جمال البنا النص المذكور في النصوص اللؤلؤية، ويقطع بأن الزيدية يقدمون العقل على النقل، إلا أن أبو زهرة يوضح أن العقل الذي يقدم على النصوص، هو القضايا العقلية المقطوع بها من حيث معرفة الله، وإثبات النبوة، وكون القرآن من عند الله تعالى؛ وليس معنى ذلك أن قضايا العقل في التكليف وإصدار الأحكام مقدمة على نصوص القرآن والسنة. وقد استمر خلاف تقديم وتأخير العقل على النقل أو العكس، حتى يومنا هذا، فما زال يمثل فكراً خلافياً بين من يؤمن بأولوية العقل على النقل، أو من يؤمن بأسبقية النقل على العقل، حتى باتت هذه الإشكالية من المرتكزات الرئيسة في نشأة علم الكلام الجديد في الفكر العربي والإسلامي المعاصر. وسنفصل القول في ذلك لاحقاً.

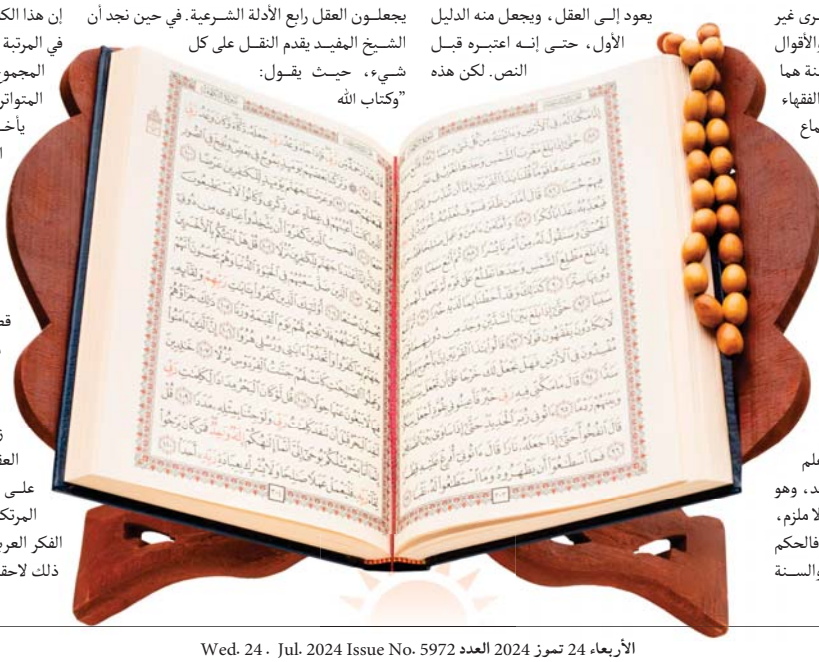

تقدّم اللسانيات الإدراكية مقاربة متكاملة ومتعددة التخصصات لدراسة اللغة البشرية، إذ تستند إلى مبادئ الإدراك المتجسّد والاستعارات التصورية، وتلتزم البحث عن المعايير العامة للبنية اللغوية التي تتماشى مع ما هو معروف عن العمليات الإدراكية البشرية من العلوم الأخرى.

اللسانيات الإدراكيّة
نظرة في المنهج والمبادئ

د. عادل الثامري

إنّ الإدراك هو العملية العقلية التي نكتسب من خلالها المعرفة والفهم عن طريق التفكير والخبرة الحسية. وهو يشمل العديد من الوظائف والعمليات الإدراكية كالانتباه وبناء المعرفة والذاكرة العاملة والحكم والتقييم والتفكير وحل المشكلات بطريقة حوسبية واتخاذ القرارات وإنتاج اللغة. تفيد العمليات الإدراكية من المعرفة الحالية لدينا وتسهم في توليد معرفة جديدة. ويتم تحليل هذه العمليات من منظورات متعددة وفي سياقات مختلفة، ولا سيما في مجالات اللسانيات وعلم الأعصاب والطب النفسي وعلم النفس والتعليم والفلسفة والأنثروبولوجيا وعلم الأحياء والمنطق وعلوم الحاسوب. يتم تجميع هذه الأساليب وغيرها من الأساليب المختلفة لتحليل الإدراك في مجال العلوم الإدراكية النامي. علاوة على ذلك، فإنّ كلمة الإدراك وبالتالي العلوم الإدراكية تعود إلى القرن الخامس عشر وهي تعني "التفكير والوعي".

ظهرت العلوم الإدراكية كمجال متعدد التخصصات في الخمسينيات من القرن الماضي، بإسهامات من علم النفس واللسانيات وعلوم الحاسوب وعلم الأعصاب والفلسفة. في عام 1957، اقترح نعوم تشومسكي نظريته المؤثرة في القواعد التوليدية، والتي أكدت على البنى العقلية الفطرية الكامنة وراء اكتساب اللغة. وتطورت خلال الخمسينيات من القرن العشرين أيضًا نماذج معالجة المعلومات الإدراكية ومقارنة العقل بالحاسوب. في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، حولت الثورة الإدراكية في علم النفس التركيز إلى دراسة البنى والعمليات العقلية الكامنة وراء السلوك. وظهرت مجموعة من المفاهيم والنظريات الأساسية مثل نظريات العملية المزدوجة التي تميز بين العمليات الإدراكية الضمنية والصريحة؛ ونظرية الخطاطة الذهنية، التي تقترح أنّ المعرفة منظمة في بنى عقلية توجّه الإدراك والفهم؛ والنظريات الحوسبية التي تحلل الإدراك من حيث العمليات الحوسبية؛ النماذج الاتصالية التي تمثل الإدراك على شكل شبكات هي نماذج عصبية اصطناعية. هذه النماذج مستوحاة من بنية ووظيفة الشبكة العصبية في الدماغ البشري؛ ونظريات الإدراك المجسدة التي تؤكد أنّ الإدراك يتشكل من خلال التفاعلات الجسدية.

اللسانيات الإدراكية وأسسها في الفلسفة

ترتكز اللسانيات الإدراكية على المبادئ الفلسفية للإدراك المتجسد والتجربة. تفترض فكرة الإدراك المتجسد أنّ الفكر والتفكير البشري يتشكلان بعمق من خلال الأجساد المادية التي نعيش فيها وتجاربنا الحسية الحركية في العالم. وأنّ فهمنا التصوري ليس مجرداً وغير مجسد، بل ينشأ من تفاعلاتنا الجسدية مع البيئة. يرتبط هذا الموقف الفلسفي ارتباطًا وثيقًا بمفهوم التجربة، الذي يرى أنّ نظامنا التصوري استعاري في المقام الأول بطبيعته ومشتق من تجاربنا المادية والثقافية. يجادل اللسانيون الإدراكيون بأنّ المفاهيم المجردة تفهم وتنظم من خلال التعيينات الاستعارية من مجالات التجربة الملموسة والمجسدة.

فضلًا عن مبدأ الإدراك المجسد، تأثرت اللسانيات الإدراكية أيضًا بمفهوم الغشطالت الفلسفي، الذي يشدد على الطبيعة الكلية والمعتمدة على السياق للإدراك البشري. تجادل اللسانيات الإدراكية بأنّ اللغة ليست نظامًا محايدًا منفصلًا عن العمليات الإدراكية الأخرى، بل هي مترابطة بشكل وثيق مع الإدراك والانتباه وعمليات الذاكرة والتفكير. حيث لا يمكن فصل اللغة عن باقي القدرات الإدراكية للإنسان. هذا المنظور يتحدى النظرة التقليدية للغة كنظام شكلي مستقل، ويدعم فكرة أنّ اللغة تنبع من قدراتنا الإدراكية الأوسع. علاوة

المعرفة منظمة في بنى عقلية توجّه الإدراك والفهم

على ذلك، يشير إلى أنَّ فهم اللغة يتطلب النظر إليها في سياقها الشامل، بدلًا من دراستها بمعزل عن العمليات الذهنية الأخرى. كما أنَّ تكامل اللغة مع الإدراك والانتباه والذاكرة يساعد في تفسير كيفية اكتسابنا واستخدامنا للغة بطريقة طبيعية ومرنة. ولا يمكن تجاهل دور هذه العمليات الإدراكية المترابطة في تطور اللغة البشرية وتعقيداتها.

تستمد الجذور الفلسفية للسانيات الإدراكية أيضًا من الظاهراتية، وخاصة أعمال فلاسفة مثل موريس ميرلو بونتي، الذي أكد على أولوية التجربة المعيشة والطبيعة المتجسدة للوجود الإنساني. يشارك اللسانيون الإدراكيون هذا التركيز على الأساس التجريبي للبنى التصورية وعدم إمكانية الفصل بين العقل والجسد. ومن خلال ترسيخ اللغة في الإدراك البشري والتجربة المجسدة، تقدم اللسانيات الإدراكية منظورًا مختلفًا جذريًا عن المناهج الشكلية والتوليدية التي هيمنت على اللسانيات في القرن العشرين.

أسس الإدراك المتجسد في اللسانيات الإدراكية

مفهوم الإدراك المجسد هو مبدأ مركزي للسانيات الإدراكية، يتحدى النظرة التقليدية للعقل بوصفه معالج معلومات مجردًا منفصلًا عن الجسم. يرى لاكوف وجونسون أنَّ العقل مجسد بطبيعته، والجسد هو الذي يشكل العقل، وبما أنَّ معظم التفكير لاشعوري، لذلك لا يمكن ببساطة مساواة العقل بالعقلية الواعية. يرفض هذا المنظور الازدواجية الديكارتية للعقل والجسد، ويؤكد على الصلة التي لا تنفصم بين تجسيدنا المادي وقدراتنا الإدراكية.

يفترض مؤيدو الإدراك المجسد أنَّ فهمنا التصوري يستند إلى الخبرات الحسية الحركية التي نمرّ بها في العالم؛ إذ إنَّ التصورات لا توجد ببساطة ككيانات مجردة، بل تستند إلى عمليات حسية حركية وهي التي تحكم إدراكنا للعالم وتفاعلنا معه. يعتقد أنَّ عملياتنا الإدراكية، بما فيها اللغة، تنشأ من تجاربنا الجسدية في الإدراك والحركة والتفاعل مع البيئة. هذه النظرة إلى الإدراك المجسد تتحدى المفاهيم التقليدية للمفاهيم المجردة وغير الجوهرية؛ يرفض الإدراك المجسد فكرة أنَّ المفاهيم الإنسانية هي أوصاف مجردة أو رمزية بحتة أو افتراضية منفصلة عن خبرات الناس الحسية والحركية. وبدلاً من ذلك، يجادل اللسانيون الإدراكيون بأنه حتى المفاهيم التي تبدو مجردة في ظاهرها فهي متجذرة في الخبرة الملموسة والمجسدة.

يتجلى دور الجسم المادي في تشكيل الفكر والاستدلال من خلال البحث في الاستعارات التصورية. أظهر لاكوف وجونسون (1980) كيف أنَّ المفاهيم المجردة مثل الوقت والعواطف والأفكار غالبًا ما يتم تصورها من خلال الخرائط المجازية من المجالات الملموسة والمجسدة مثل التوجه المكاني والأشياء المادية والتجارب الجسدية. على سبيل المثال، تستند استعارة «الوقت جسم متحرّك» إلى تجربتنا المادية لرؤية الأشياء تتحرك عبر الفضاء. يتجلى دور الجسم المادي في تشكيل الفكر والاستدلال من خلال البحث في الاستعارات التصورية. أظهر لاكوف وجونسون (في كتاب الاستعارة التي نعيش بها) كيف أنَّ المفاهيم المجردة مثل الوقت والعواطف والأفكار غالبًا ما يتم تصورها من خلال التعيينات المجازية من المجالات الملموسة والمجسدة مثل التوجه المكاني والأشياء المادية والتجارب الجسدية. على سبيل المثال، تستند استعارة «الوقت جسم متحرّك» إلى تجربتنا المادية لرؤية الأشياء تتحرك عبر الفضاء.

الافتراضات والالتزامات

يتميز مشروع اللسانيات الإدراكية بالتزامين أساسيين، وهما أساس كل من التوجه والمنهج الذي يتبناه اللسانيون الإدراكيون الممارسون والافتراضات والمنهجيات المستخدمة في الفرعين الرئيسين لمؤسسة اللسانيات الإدراكية: علم الدلالة الإدراكي، والنحو الإدراكي. التزم اللسانيون الإدراكيون على نطاق واسع التزامين رئيسين هما "التزام التعميم" و"الالتزام الإدراكي". هذان الالتزامان يشكلان أساس الاتجاه والمنهج الذي يتبناه اللسانيون الإدراكيون الممارسون.

تعرف اللسانيات الإدراكية على أنها "مؤسسة" أو "حركة" لأنها ليست نظرية معينة. وهي إلى حد ما إطار يفترض مجموعة مشتركة من المبادئ التوجيهية والافتراضات ووجهات النظر.

"التزام التعميم" هو التزام بتوصيف المبادئ العامة المسؤولة عن جميع خصائص اللغة البشرية. والالتزام الإدراكي هو التزام بإعطاء توصيف للمعايير العامة للغة التي تتفق مع ما هو معروف عن النفس والعقل من مختلف الضوابط. اللسانيات الإدراكية، وهي مدرسة حديثة لسانية هي دراسة اللغة التي غالبًا ما يتم عزلها إلى مناطق معينة، على سبيل المثال، علم الأصوات (الصوت)، الدلالة (معنى الكلمة والجملة)، التداولية (سياق الخطاب)، الصرف (بنية الكلمة) القواعد (بنية الجملة)، إلخ. يدفع التزام التعميم إلى البحث عن معايير بنية اللغة التي تنطبق على جميع أجزاء اللغة. بطريقة مترابطة، يشير الالتزام الإدراكي إلى الرأي القائل إنَّ معايير البناء اللغوي يجب أن تعكس ما يفكر فيه حول الإدراك البشري من عناصر تحكم مختلفة، وخاصة العلوم الإدراكية الأخرى (الفلسفة وعلم النفس والذكاء الاصطناعي وعلم الأعصاب).

يمثل التزام التعميم التزامًا بتوصيف المبادئ العامة التي تنطبق على جميع جوانب اللغة البشرية. وهذا الهدف هو مجرد حالة فرعية خاصة من الالتزام المعياري في العلوم بالسعي إلى أوسع تعميم ممكن. على النقيض من منهج اللسانيات الإدراكية، غالبًا ما تفصل المناهج الأخرى لدراسة اللغة القدرة اللغوية إلى مجالات متميزة مثل علم الأصوات (الصوت)، وعلم الدلالة (معنى الكلمة والجملة)، والبراغماتية (المعنى في سياق الخطاب)، والصرف (بنية الكلمة)، وبناء الجملة (بنية الجملة)، وما إلى ذلك. يمثل التزام التعميم التزامًا بالتحقيق المفتوح في كيفية ظهور الجوانب المختلفة للمعرفة اللغوية من مجموعة مشتركة من القدرات الإدراكية البشرية التي تعتمد عليها، بدلًا من افتراض أنها تنتج في وحدات مغلقة من العقل. التزام التعميم له عواقب ملموسة على دراسات اللغة. أولًا، تركز الدراسات اللسانية الإدراكية على ما هو مشترك بين جوانب اللغة، وتسعى إلى إعادة استخدام الأساليب والتفسيرات الناجحة عبر هذه الجوانب.

والالتزام الثاني هو الالتزام الإدراكي. وهو يمثل التزامًا بتقديم توصيف للمبادئ العامة للغة يتوافق مع ما هو معروف عن العقل والدماغ من التخصصات الأخرى. وهذا الالتزام هو الذي يجعل علم اللغة الإدراكي إدراكيًا، وبالتالي فهو منهج متعدد التخصصات بشكل أساسي بطبيعته. وكما يؤدي التزام التعميم إلى البحث عن مبادئ البنية اللغوية التي تشمل جميع جوانب اللغة، بطريقة مترابطة، فإنَّ الالتزام الإدراكي يمثل وجهة النظر القائلة إنَّ مبادئ البنية اللغوية يجب أن تعكس ما هو معروف عن الإدراك البشري من الجوانب الإدراكية الأخرى. وعلوم الدماغ، وخاصة علم النفس، والذكاء الاصطناعي، وعلم الأعصاب الإدراكي، والفلسفة. وبعبارة أخرى، يؤكد الالتزام الإدراكي أنَّ نماذج اللغة والتنظيم اللغوي المقترحة يجب أن تعكس ما هو معروف عن العقل البشري، بدلًا من الإملاءات الجمالية البحتة مثل استخدام أنواع معينة من الشكليات أو اقتصاد التمثيل. للالتزام الإدراكي عدد من النتائج الملموسة. أولًا، لا يمكن للنظريات اللسانية أن تتضمن هياكل أو عمليات تنتهك الخصائص المعروفة للنظام الإدراكي البشري. على سبيل المثال، إذا كان الاشتقاق المتسلسل للبنى النحوية ينتهك القيود الزمنية التي توفرها المعالجة الفعلية للغة البشرية، فيجب التخلص منها. ثانيًا، النماذج التي تستخدم الخصائص المعروفة والموجودة للإدراك البشري لتفسير ظواهر اللغة هي أكثر بخلًا من تلك التي تم بناؤها من مقاييس البساطة المسبقة. على سبيل المثال، يُعرف الكثير عن التصنيف البشري، والنظرية التي تقلل معنى الكلمة إلى نفس الآليات المسؤولة عن التصنيف في المجالات الإدراكية الأخرى أبسط من تلك التي تفترض وجود نظام منفصل لالتقاط الدلالات المعجمية. وأخيرًا، يتعين على الباحث اللساني الإدراكي إيجاد أدلة متقاربة للواقع الإدراكي لمكونات أي نموذج أو تفسير- سواء تم إجراء هذا البحث من قبل اللسانيين الإدراكيين أم لا.

تستند المقاربة الإدراكية إلى مبادئ الإدراك المتجسد والاستعارات التصورية. وتفترض أنَّ الفكر والتصور البشري يتشكلان من خلال التجارب الجسدية والحسية، متحدية بذلك النظرة التقليدية للغة باعتبارها نظامًا مستقلًا. تلتزم اللسانيات الإدراكية "التزام التعميم" الذي يسعى لتوصيف مبادئ عامة تنطبق على كل جوانب اللغة، و"الالتزام الإدراكي" الذي يهدف لضمان توافق النماذج اللغوية مع المعرفة الحالية عن الإدراك البشري. ويؤكد هذا المنهج على الترابط بين اللغة والعمليات الإدراكية الأخرى كالانتباه والذاكرة، ويدفع نحو بحث متعدد التخصصات يستفيد من مجالات مثل علم النفس والذكاء الاصطناعي وعلم الأعصاب، مما يجعل اللسانيات الإدراكية إطارًا شاملًا لفهم اللغة في سياق القدرات الإدراكية البشرية الأوسع.

إن الدخول إلى مملكة العنوان يشبه الدخول في حقل ألغام، فأول ما يطالعنا فسيفساء من الدهشة والغرابة والغموض والجمال والمباشرة والتقليدية، لذلك نحتاج أول ما نحتاجه هو جهاز كشف يشبه إلى حدما الكشف الشعاعي الذي يُعالج به المريض، لمعرفة نوع الداء، فلم يعد العنوان مجرد اصبع تشير إلى فحوى النص، ولم يعد الكتاب يعرف من عنوانه فقط، وللعنوان تعاريف كثيرة، منها انه((المفتاح الإجرائي الذي يمكن من خلاله الولوج إلى عالم النص، وكشف أسراره)) وهو عند محمد الهادي المطوي ((نص صغير يؤدي وظائف شكلية وجمالية ودلالية تعد مدخلاً لنصٍ كبير)) والعنوان بحسب بسام موسى قطوس هو: أول شفرة رمزية يلتقي بها القارئ، فهو اوّل ما يشد انتباهه وما يجب التركيز عليه وفحصه وتحليله ،بوصفه نصاً أولياً يشير ،أو يخبر ،أو يوصي بما سيأتي.

كمال عبد الرحمن

كما أن العنوان هو اسم الشيء ودلالاته ووصفه، والحارس الأمين الذي يقف على بوابة النص، لايشي بسر، ولايمنح إشارة، ولايعطي دلالة أو إيحاء أو تحليلاً، إلا للباحث الجاد المجتهد، الذي له القدرة على اختراق مملكة المناص الموازية للنص، وصولاً إلى العتبة العنوانية، وما يليها من محن تفسيرية وحفر وتنقيب وبحث شاق في عالم العنوان، والعنوان كما يرى سعيد علوش هو ((مقطع لغوي أقل من الجملة نصاً أو عملاً فنياً)) لكنه أحياناً يصل إلى جملتين فتشكل عبارة تامة كاملة، ومن هذه العناوين الطويلة ((أحد عشر كوكباً على آخر المشهد الأندلسي، قصائد، محمود درويش، فلسطين) و(ما بكى يوسف لكن الذئب بكى، قصائد، د. فوزي الطائي، العراق) و(ما سقط سهواً من ذاكرة الحلم، قصائد، عبد المنعم الأمير، العراق) و(السماء التي أمطرت ذهباً، قصص ، د. هيثم يحيى خواجة، سورية) و(وجه إلى السماء نافذة إلى الأرض، قصائد، عمر السراي، العراق) و(أنا بغيابك ماء يضنيه العطش، التماعات ، د. عمار أحمد ، العراق) و(بوصلة من أجل عبّاد الشمس، رواية، لبانة بدر، فلسطين)..الخ.

فالملاحظ هنا أن أغلب هذه العناوين هي جملة أو أكثر، فمثلاً (مابكى يوسف) هذه جملة كاملة لأن الفعل (بكى) هو فعل لازم، و(لكن الذئب بكى) هذه جملة استدراكية، والجملة الأولى والثانية تشكلان عبارة متكاملة المعنى والدلالة، وهكذا بقية العناوين الأخرى، لأن العنوان قد تطور تطوراً سريعاً وكبيراً بشكل يلائم تطور النص.

و ظهرت العنونة على أنها إشكالية حقيقية ومازال الأخذ والرد بها قائمين، وعلى الرغم من كل هذا فقد تتشكل العنونة تحت تأثير فلسفي مزدوج في (العام-الخاص) خارج المتن وداخله وقد نسلم جدلاً بأن العنونة (الداخلية) ليست سوى حاجة نفسانية يروى بها ظمأ النّاص في حالة ما أو حالات إلى أرقى تمثيل حضوري فاعل لتقديم المعنى الخاص بتحريض الحواس الملموسة وغير الملموسة واستنفارها لجلب الاهتمام إلى الغائص من النص، وبمزعوم الناص أن للعنوان تأثيراً سايكلوجياً (نفسانياً) على المتلقي بالطريقة التقليدية التي غادرها البعض دون رجعة (الكتاب يعرف من عنوانه) ولو مشينا بهذا الرأي لانتفت الحاجة لهذه الدراسة، فإذا كان عنوان الكتاب (الأنهار) فإنه يتحدث عن الأنهار وليس الصحراء مثلاً، وفي عنوانات كهذه يكون وجه المتن أو ناصيته عارياً من دون أن تكون للعنوان قدرة على إلباسه زيّ التكهن والافتراض، تسقط هنا فلسفة العنونة وتتلاشى الحاجة إلى بهرجة ناصية المتن أو تصنيع عنونة أو إدخالها في دوائر التخيل والتحريض والترميز، فيتحول العنوان في تشكيلة تقليدية رتيبة إلى فزّاعة كلام تقف بحياد سلبي على مفترق طرق المتن.

لكن العنونة لم تعد بهذه السذاجة، فقد واكبت تطورات النص وصارت تمثل وعياً كتابياً عالياً يرقى بالنص إلى فضاءات (رمزية) ملغزة خاصة، من هنا ينبغي عدم تجاوز هذه الإشكالات وبخاصة أن بعضها –العنوانات- تمتاز باعتمادها ((الرمز تحت تأثير انزياحات مشفّرة بأنماط فيها الصورة التشبيهية والصورة الكنائية والصورة المجازية))ولسنا هنا بصدد مناقشة مستويات الرمز بقدر تخيلنا لآليات تفعيل الرمز على أنها تخرج من مستويين، الأول (داخلي) وهو صوت (الأنا-الذات)، والثاني (خارجي) وهي مجمل الضغوط الخارجية وهي أيضاً صوت (الآنا-الآخر) وسلطته على الذات.

ولن يكون بمقدورنا الخروج ببساطة هكذا من دائرة العنونة بعد أن دخلناها بيسر وسهولة، الخروج شائك وصعب، والعملية هذه تجري من طرف المرسل وهو يؤم ببناء المرسلة بحثاً عن الاستقلال الذاتي في توليد الدلالة، وهذا ما يعنيه بول ريكور بـ((إمكانية انفتاح النص على قراءات متعددة مفتوحة، بل لانهائية))، وفي هذا المنعطف ((يتداخل حق القارئ بحق النص في نزاع يولد حركية التأويل برمتها، إذ يبدأ التأول حيث ينتهي الحوار))ومن هنا تبرز فلسفة المرسل في بناء مرسلته/ العنوان بناء مفتوحاً وانزياحياً قادراً على التحول الدلالي الذي لا يحدث في العلامة اللغوية المباشرة، الأمر الذي يترتب عليه اختلاف تلقي العنوان والاستجابة له تبعاً لمدى الشعرية التي يحملها العنوان.

ومما لاشك فيه أن المسافة بين المتن والعنوان ليست أرضاً بكراً أو بوراً بآن واحد، أي بمعنى آخر أن هذه المسافة تقع دائماً تحت طائل الحفر والتنقيب وفق تأثير فلسفات تشكيلية عدة، بعضها يقرب المسافة بين النقطتين (العنوان والمتن) والأخر يبعد المسافة، وثالث يلغيها، ورابع يؤسيجها بالتأويلات، وهكذا إلى أخر ما تعاني منه مسألة العنونة باتجاه آفاق رمزية جديدة تخرج هذه العنونة من وظيفة الخادم أو البواب أو المؤشر بأصبع السذاجة إلى تفعيل تكميلي لآلية المتن، تلك الآلية التي فضحتها سذاجة العنوان ووشت بأسرارها بطريقة تجعل المتلقي يكتفي باستعراض العناوين دون الحاجة إلى أن يتعب توقعاته في فكّ الأغلفة الداخلية وقراءة المسرد إذا كان كتاباً فيه عنوانات (داخلية) فرعية أو قراءة سطوره الداخلية إذا كان من النصوص المنفصلة، وهذا ما تجاوزته عتبة العنوان في الأدب وبخاصة بعد أن تطور العنوان في تمظهرات جديدة تواكب تطور النص الأدبي المعاصر.

مما لاشك فيه أن المسافة بين المتن والعنوان ليست أرضاً بكراً أو بوراً

كيف تخلخلُ مفاهيمنا عالمَ الصغار وتقتحمه

فيلم (close) تجربة مؤثرة في طريق النضج

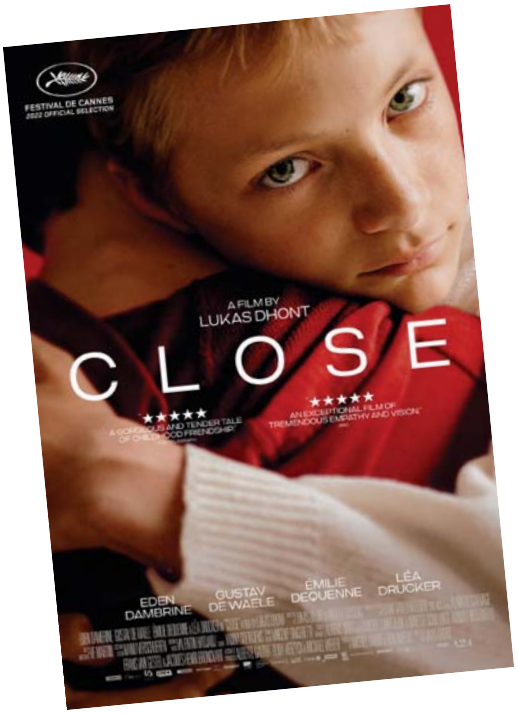

وداد سلوم

حصل فيلم (close) للمخرج البلجيكي لوكاس دونت على جائزة أفضل فيلم في مهرجان كان عام (2022) ورغم أنَّ هذا كان قبل عام من تصدّر فيلم الوحش للمخرج الياباني هيروكازو كورنيدا والذي نال سعفة كان الذهبية (2023) فإنَّ المشاهد المتابع سيجد أنهما يطرحان قضيتين متشابهتين في مجتمعين مختلفين. أي عالم الطفولة والتغيرات التي تطرأ عليها بتأثير اقتحام مفاهيم الكبار والأحكام المسبقة والجاهزة التي يتم إطلاقها وتداولها وتلقينها للأولاد دون إحاطة بآثارها في عالم الطفولة وانتهاكها براءته ولا النظر للأثمان التي يدفعونها دون ذنب. فحتى المجتمعات المتحضرة تعيش تناقضاتها وارتباكها تجاه المفاهيم الجديدة وما يستجد من بنى اجتماعية تفرضها، فما تأثير ذلك في عالم الأطفال البريء؟ وكيف ينعكس عليهم التغير العاصف لدينا دون أن يؤذيهم؟.

يبدأ الفيلم بمشهد لطفلين (ليو وريمي) يركضان في حقل من الورد بعفوية، تلفح وجهيهما نسمات الربيع وألوان الورود توحي بذلك الجمال المتفتح في الطبيعة وفي روحيهما كربيع حقيقي داخلي وخارجي.

تربط بين الطفلين صداقة قوية جداً، فيتشاركان الخيال واللعب والنزهات والمدرسة والطعام حتى أنهما ينامان في سرير واحد أغلب الأوقات وحين يصيب ريمي الأرق يقوم ليو بسرد حكاية له. يلاحظ أصدقاء المدرسة قربهما الشديد حتى أنَّ بعض الفتيات يسألنهما إن كان ما يربطهما هو علاقة عاطفية، ينفي ذلك ليو وريمي ويفاجئهما أن يوسما بالمثلية لمجرد صداقتهما البريئة والمكشوفة. يتلقى ليو الصدمة ويتأثر بها كثيراً ويشعر بأنه متهم فيبدأ بتغيير سلوكه محاولاً نفض الصفة عنه بأي شكل دون أن يشرح لريمي شيئاً، ولعلّ ذلك بتأثير من بيئة كل منهما، فبينما ليو ابن مزارع يعمل بالأرض وما ينعكس من ذلك على طريقة التفكير التقليدية، فإنَّ ريمي طفل رومانسي يهتم بالموسيقى ويعزف على الفلوت ووالداه يعملان في المدينة القريبة ولا شك أنَّ هذا أيضًا ينعكس على طريقة تربيته ومفاهيمه أيضًا.

ولهذا فإنَّ كل تغير في سلوك ليو يسبّب صدمة لريمي تجعل عالمه يهتز ويشعر بفقدان الاتزان ورغم أنه يواجه ليو في معاتبة تصل لحدود اللكم بينهما، إلا أنَّ ناره الداخلية لا تنطفئ؛ نار الإحساس بالتخلي والترك وفقدان الصديق الوحيد الذي يشاركه عالمه كله. بينما نرى أنَّ ليو يمضي في قراره الحاسم دون توضيح، حتى حين يتخلف ريمي عن الرحلة المدرسية إلى البحر يفتقده ليو دون أن يعبر عن ذلك فقراره بالتغيير جعله يتعلم التكتم على أفكاره ومشاعره، وحين يعودون من الرحلة يكون أهالي الطلاب بانتظارهم وكأنَّ مصيبة قد وقعت. ويشعر بها ليو بقوة حتى أنه لا يستطيع النزول من الباص فتصعد والدته وتخبره أنَّ ريمي قد غادر هذا العالم.

رغم الصدمة الكبيرة ورغم الشرخ الذي تركه غياب ريمي نجد ليو يحاول التماسك وإظهار للآخرين أنَّ غياب ريمي لا يؤثر فيه ربما إمعاناً في رد التهمة السابقة ولكن في داخله لا يتوقف ذلك الجلد الذاتي والإحساس الذي يسيطر عليه بأنه سبب موت ريمي إضافة إلى الشوق الشديد لرفيقه، وعدم استيعاب غيابه الأبدي. فكيف لطفل في الثالثة عشرة استيعاب معضلة الموت وحده؟ وكيف يمكنه تحمل شعور أنه السبب فيها؟ مهمة صعبة كثيراً، تبدأ بالتأثير به نفسيًا وجسديًا حتى أنه يتبول ليلًا في فراشه ويبدأ باللجوء لأخيه الأكبر ليستطيع النوم. أما في المدرسة التي أقامت جلسات استماع للطلاب لتدارك تأثير موت زميلهم ريمي منتحراً فيهم ومحاولة استيعاب ردود أفعالهم، يخوض ليو الجلسات بالصمت وحسب، ثم يبدأ بالتهكم على زملائه، وما يكتبونه عن ريمي، وينتهي إلى ترك الجلسات التي يشعر أنها لا تستطيع تقديم شيء له.

ويبدأ بالعمل في حصاد الورد ومساعدة أهله بالعمل في الحقول بشكل مرهق ودون توقف كأنه يريد إنهاك واستنفاد طاقته وقدراته لينسى الواقع ولا يستطيع. وفي رياضة الهوكي التي كان قد بدأ بتعلمها نجده يتعمد السقوط في محاولة إلحاق الأذى الجسدي بنفسه وقد يكون انتقامًا من بقائه حيًا بعد ريمي أو بعد أن أرسل ريمي للموت وهو الشعور الذي يبلغ الذروة حين يبالغ في تعمد السقوط أثناء التدريب فيتسبب بكسر يده وبينما كان الطبيب يقوم بتجبيرها ينخرط ليو في بكاء شديد لا يتناسب مع ألمه كأنه يبكي ألمًا اختزنه لأيام طويلة.

تستمر حالة الصراع هذه مدة طويلة محاولًا العثور على إشارة تركها ريمي وراءه فيزور والدته وينظر في غرفته متذكرًا تلك الأيام وتلك السعادة الماضية. إلى أن يقوم بزيارة والدة ريمي نهاية العام الدراسي في مكان عملها وفي طريق العودة معها يعترف لها أنَّ تخليه عن ريمي كان السبب في انتحاره. تطرده الأم من السيارة لكنها تعود وتتمالك نفسها وتبحث عنه وتعيده للبيت. وحين يعود لزيارتها في المنزل، يجد أنهم قد رحلوا إلى غير رجعة حاملين معهم كل الذكريات وكأنهم قد أغلقوا عليه الماضي، أو أنَّ هذه العلاقة قد أغلقت للأبد بالموت أولًا وبالرحيل ثانيًا وهو المعنى الثاني الذي يمكن أن يصلنا من العنوان.

لم يكن ليو مجرماً ولم يدرك حجم تأثر ريمي بتغيير سلوكه تجاهه، فقد استفزه الحكم المسبق الذي أطلقته الفتيات عليهما. تلك المفاهيم الجاهزة التي تتسرب على شكل تهمة وتحكم على الآخرين دون رادع، خاصة أنها ما زالت تتراوح بين القبول والرفض، وخاصة في بعض الأوساط كالريف، وقد تتسرب بشكل عفوي إلى التعامل اليومي وتسبب ما لا يتوقعه أحد.

كانت أسرتا ريمي وليو متفهمتين لعلاقة الطفلين لكنهما لم تكونا على مستوى المتابعة لمعرفة التطورات التي يعيشها الطفلان ولا ما يعترضهما في المدرسة أو التغيرات بينهما ومحاولة رأب الصدع في العلاقة. وبينما كانت والدة ريمي تحذر من إقفال باب الحمام بالمفتاح لأنَّ ذلك ممنوع بلا نقاش، لم تكن بقرب ريمي لرصد أي إزعاج يتعرض له ومحاولة انتشاله من أزمته. كما أنَّ عائلة ليو التي لاحظت بعض التغيرات في سلوك ليو تجاه صديقه عبر الأم وتساؤلاتها، أخذها العمل عن متابعة نمو ولدها ليو ومشاعره وأفكاره في مرحلة حساسة (المراهقة) ومسيرته نحو النضج. ألم يكن حريًا بعالم الكبار أن يولي هؤلاء الصغار بعض اهتمام ورعاية أكثر.

أظهر التصوير الفروقات بشكل حاد قبل الحدث المؤثر وبعده، ففي البداية في غرفة نوم ريمي وهما معاً هناك الضوء والألوان المشرقة والبهجة المشعة من تعابير الوجوه بينما غرفة نوم ليو في ما بعد معتمة وبألوان حزينة وغير مريحة، كما أظهر الحزن المقيم في تعابير الوجوه فتشعر أنَّ ليو قد كبر وظهر التعب على وجهه الذي كان مشرقاً، وكذلك والدة ريمي ووجهها المتعب والحزين، قام بدور ريمي الطفل غوستاف دي وايلي، وأبدع ايدن دامبرين في دور ليو حتى في لحظات صمته كان يؤدي بشكل مؤثر وقد فاز بجائزة أفضل ممثل واعد، الفيلم مؤثر بشكل كبير ويستحوذ على المشاهد وقد حصد سبع جوائز منها جائزة أماندا كأفضل فيلم نرويجي وجائزة أكاديمية الأفلام الأوروبية وجائزة أفضل سيناريو وأفضل تصوير وأفضل ديكور وجائزتان لأفضل دور ثانوي في مهرجان كان.

التداعي الحر

عن «تيار الوعي» في (منازل العطراني)

بشير حاجم

من نوافل القول، بدءًا، أنّ الروائي، ممثّلًا للأديب هنا، هو إنسان ذو مشاعر وأحاسيس وانفعالات... تستند تجاربه معها إلى (تفاعلات دينامية بين أقطاب الوعي - الدماغ - الجسم - البيئة)(1)، لذلك عنده: قيم، مبادئ، أفكار... إلخ. إذًا: حين يكتب رواية، فيها واقعُه طبعًا، يحقُّ له، حتمًا، أنْ يُدلجها ثيميًّا، مضمونيًّا، لكن يجب عليه، أيضًا، أنْ يُجمّلها تقنيًّا، شكليًّا، على أساس أنّ بنيتها تجاوزٌ للثيمات بالتقنيات(2). من أهم هذه التقنيات، التي تتجاوز الثيمات، ثمّة "تيار الوعي"(3) حيث]التداعي الحر[بسيل الذاكرة عند (البطل) لإظهار وجهة نظره من خلال صياغة تسلسل أفكاره الداخلية المتعلّقة بأفعاله وتصرّفاته.

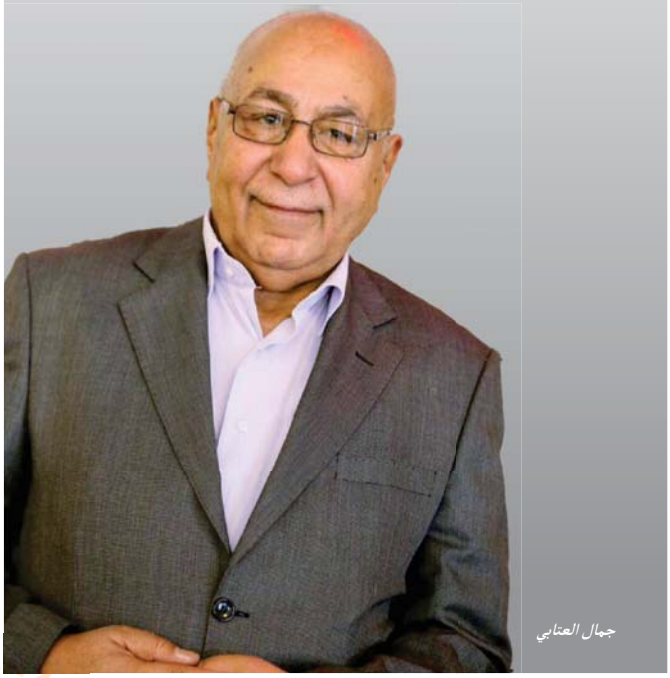

جمال العتابي

هذه التقنية متواترة في رواية (منازل العطراني)، لكاتبها "جمال العتابي"، لأنّ الثيمة الأساسية لها: هروب مناضل(4)، اسمه "محمد الخلف"، وبهذا الهروب، الذي يبدأ منذ صبيحة 8 شباط 1963، يحتاج المناضل لـ"تيار الوعي". فهذا التيار، الذي يُوصَف تصوير وعيه بشاشة تفكير ذهني، يُعنى في أساسه بارتياد مستوى ما قبل الكلام لكشف كيانات الشخصيات نفسيًّا، حسب "روبرت همفري"(5)، حيث يُكشَف هنا عن <الكيان النفسي> لشخصية (البطل). إنّه بطل سلبي مأزوم، لكونه مهزومًا موهومًا معًا، على وفق أنواع متباينة. كمّيًّا — كيفيًّا. من تقنية "تيار الوعي" في هذه الرواية الأيديولوجية(6).

فمنذ استهلال مقطعها الأول، أي استهلالها كلّها، يتجلّى تيار وعي: أين المسار؟ بعد أن بتّ ليلتك في بيت أحد أصحابك المعلّمين في الكوت، أصبحتَ طليقاً الآن، قالها محمد الخلف بحيرة وذهول، ما زلتَ في ملابس السجن! (7). هنا سارد خارجي، = (قالها محمد الخلف بحيرة وذهول،)، يُصيّر (البطل) شخصيتين: المصادفة وحدها أنقذتكَ من العودة إلى الزنزانة مرة ثانية، وجدتَ نفسك من جديد وسط المتظاهرين(8). ثم يعيده شخصية واحدة، بطلًا فقط، حين يستدعي صديقه "صالح كيطان"، ثاني الشخصيات بعده، منهيًا به تياره الواعي: - ما الذي جاء بك إلى السجن يا محمد؟ _ لستُ مستعداً الآن لأن أذكر الأسباب يا صديقي(9).

في هذا الاستهلال، إذًا، يتحكّم السارد الخارجي بتيار الوعي لـ(البطل)(10)، إنشاءً فإنهاءً، إذ سيستمر بهذا التحكّم، المتفرّد، لكنْ عبْر "تكتيك" منوّع بالوسائل والأساليب. منها، حيث استهلال المقطع الثاني، أنْ يتابع حاضره عبْر تيار وعي شبيه بحوار خارجي: قضى ليلته مشدوداً لشاشة التلفزيون في منزل صديقه صالح، "...": هل أعيش لأنني أخاف الموت؟ نحن نحبّ الحياة لكننا نعتبر السجن "سعادة" والموت شهادة! هل أعود إلى السجن من جديد؟ من يُعين شخصاً مثقلاً بالأسئلة؟(11). ثم يجعله حوارًا داخليًّا، في المقطع الثالث، أسئلةً فجواباً: يرتد يلعن سلطة الوهم محدثاً نفسه: "..."، ترى كيف سيكون المكان الآخر؟ ما شكله بل ما شكل الزمان فيه؟ "..." من يضمن خلوّ طينه من الأصوات من؟ في نظري هو انتقال من كابوس إلى واحة! (12). بعْده، في المقطع الرابع، يجعله تساؤلًا بلا تجاوب: ترى من جاء به إلى هذا السكون..؟ يتساءل محمد، يبحث عن جواب: الجواب ليس مهماً في نظري الآن، (13).

هذا "التكتيك" المنوّع، بوسائل وأساليب كهذه، يحتاج من السارد الخارجي، المتحكّم بتيار وعيه، إلى أن يؤكّد عن (البطل) السلبي، المهزوم الموهوم، تأزّمه، في المقطع الخامس، متأتّيًا من تعبه: كان محمد الخلف متعباً ومتأزماً، (14). ذلك، تعليلًا أو تفسيرًا، لأنّ هذا التعب، المتأتّي من ذاك التأزّم، سيُواتر بتنويعة جديدة تيار الوعي عنده، في المقطع السادس، إذ نادى ابنَ شقيقته (فجاء مسرعا: .نعم خالي، أنا حاضر لأي أمر _ متعب أنا يا عباس لم أنم الليلة الفائتة: كنت أمشي في دروب مدينة مجهولة "..." ثم هويت على الأرض! ظل عباس واقفاً وسط الكوخ ينتظر ما يفصح عنه خاله: _ هل بإمكانك أن تجد لي جهاز راديو؟)(15). أيْ أن الخال، هنا، إنّما قال له (متعب أنا يا عباس لم أنم الليلة الفائتة: "..." هل بإمكانك أن تجد لي جهاز راديو؟)، فقط، أمّا قوله من (كنت أمشي في دروب مدينة مجهولة) إلى (ثم هويت على الأرض!) فتيار لوعيه(16).

أيضًا من التنويعات الجديدة لتيار الوعي عند (البطل)، على غرار هذه الأخيرة هنا، أنْ يحاور: ذاته .نفسه، في المقطع الثامن، بأنْ (كان مشفقاً على زوجته زهرة، يحاورها بصمت: في سنوات تلت كان لنا حب في كل خفقة قلب، "..."، سامحيني بنت خالي، "...".)(17). أو يتحدّث لأحد مجهول: غير معلوم من هو بالضبط، في المقطع التاسع، بأنْ يصير ساردًا داخليًّا: (لم يكد الأب يخفي لهجته وإعجابه في نبرة صوت ابنه الموشوم باللوم والمراجعة الذكية: تهيأتُ لتعنيفه لأني لم أسمعه يتحدث معي بهذه اللهجة، "..."، شغفي به يزداد)(18). أو يخاطب آخَره، في المقطع الحادي عشر، لكنْ ليس غيْره، لا، بل قرينه، أي: مُصاحبه .مُلازمه، بأنْ يذكر اسمه هو: (تنكّب عباس بندقيته "..."، اندفع محمد يحاول اللحاق به من دون تردد، منشغلاً مع وساوسه، "...": عليك يا محمد أن تذهب إلى حيث تحملك نجمة القطب)(19). أو ينهى شخصه أمرًا، في المقطع الثالث عشر، بأنْ يقوله (لنفسه) لا "مع نفسه"!: (كان

مشدوداً لسماع النشرة إلى نهايتها، "..." قرأ المذيع مجموعة قرارات، "...": 1.حكم المجلس العرفي الأول غيابياً على (المجرم) محمد الخلف بالحبس الشديد لمدة 5 سنوات، لهروبه من السجن. "...". لا تضعف، قال محمد لنفسه،)(20). أو يجمع: ذاتيّته الجمعية + هويّته الفردية، في المقطع الخامس عشر، بأنْ يستحضر روائيًّا روسيًّا: (وقف يستعيد تساؤلات دويستوفسكي في مذكرات قبوه: نحن البشر الذين نسكن الحفر علينا أن نلجم أفواهنا، "..."، ماذا بوسعي الآن أن أفعل؟)(21). أو يُجيب مناديًا هو قرينه، في المقطع الحادي والعشرين، بأنْ يستدرك على ندائه: (راح يخاطب السماء: "..."، يا لرهبة اللحظة حين يأتيني صوت قادم من أعماق الظلمة ينادي: -ثق بقدراتك، "...". _ لكن الثقوب في قرية الهارب كثيرة أيها المنادي!)(22).

في المقطع الثالث والعشرين، بعد 18 تشرين الثاني 1963، يكون (البطل) في "بغداد": تصاعد إحساس محمد الخلف بالغربة حال دخوله البيت، هو غريب حقاً عن المدينة وأهلها لا يعرفه أحد منها، (23). لكن غربته هذه، هنا، ستُنتفى، شيئًا فشيئًا، بعدما يستقر داخل مدينته حيث (دفء البيت والتفكير بالعمل والمستقبل ورحلة المجهول.) (24): ففي المقطع الرابع والعشرين، قبالة ولده الأكبر "خالد"، يقول: شعوري بالسأم يتعاظم! أفكّر جدياً بالعمل والخلاص من هذا الأسر، لم أعد أطيق هذه الرتابة والجمود في حياتي، (25). وفي المقطع الخامس والعشرين، بوساطة من زوجته عند زوجة مقاول، عملَ فـ: أتقن عمله واجتهد فيه، نجح في كسب رضا المقاول والعمال معه، اندمج بأجواء العمل(26). أمّا في المقطع السادس والعشرين، بعد نجاته من حادثة مرورية، فـ: فجأة بدأ الأب يواجه هواياته بمحبة وانغمار، "..." طلب شراء بعض الألوان، وكمية من الورق بأنواع وقياسات مختلفة مع أقلام ملوّنة، حبر للخط وأعواد من القصب، (27). ثم في المقطع السابع والعشرين، بمعيّة زوجته، يُرى منشغلًا: .أنا في حيرة، أفكر كيف نتدبر احتياجات الأولاد وهم يستعدون للالتحاق بالدراسة، الموضوع هذا يقلقني حقا.(28). أيضًا في المقطع الثامن والعشرين، بانشغالٍ مماثل، ثمة: تسامت أشواق محمد الخلف "..."، لصورة (عويد) "..."، لم يستطع أن يصور أحاسيسه في تلك اللحظة، منذ عودته من العطرانية وهو يتردد في زيارة خاطفة لأخته في مدينة الثورة (29).

هكذا استقر البطل داخل العاصمة، سكنًا فعملًا ومجتمعًا...، في هذه المقاطع الخمسة، التي مهّد لها نظيرها الثالث والعشرون، بحيث بدا عند نهايات خامسها، أي الثامن والعشرين، كمنْ خسر معركته: كنت متعباً ذلك الليل عارفاً أنني في اختبار مفروض، قبلت ما فُرض عليّ، خرجت من المعركة من دون أن أقاتل، (30). لهذا ستنتهي الرواية بهزيمته المجازية، بعدما ابتدأت بهروبه الحقيقي، إذ يُستغلّق مقطعها الأخير، الرابع والأربعون، لصالح زوجته دلاليًا

قُبيل 19 آذار 2003: انقضت الـ48 ساعة، لم يأت عامر، أوصدَت الباب حين أدركتْ ضياع الأمل.

أغلقتْ جفونها قبل الصلاة وهي ممتلئة بالدموع، لم يطلع عليها الفجر.(31). ذلك كُلّه، تبريرًا، لأنّ "تيار الوعي"، الذي أسهم تقنيًّا في النأي برواية "جمال العتابي" عن التقريرية المباشرة، قد نفد عند "محمد الخلف" منذ وصوله إلى منزله في "بغداد" حيث آخر (منازل العطراني)(32).

توضيحات:

(1) رؤية الأشياء كما هي .نظرية للإدراك، جون ر. سيرل، ترجمة .إيهاب عبد الرحيم علي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب .الكويت، 2018، ص163.

(2) انظر: البنية الفذّة .خصيصة التكنيك في الرواية العراقية، بشير حاجم، ضمْن: السارد.. رائياً .مؤتمر السرد الثاني 5 – 6 أيار 2017 دورة عبد المجيد لطفي، مجموعة من المؤلفين، الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق . بغداد، ط1، 2017، ص255.

(3) يُنظر بالتفصيل: تيار الوعي في الرواية الحديثة، روبرت همفري، ترجمة .محمود الربيعي، دار المعارف . القاهرة، 1975.

(4) مثلما لروايات: رجل الأسوار الستة، عبد الإله عبد الرزاق، ضمن مجموعته: السفر داخل الأشياء، دار الكلمة .النجف، ط1، 1971: (كان إسماعيل عامر يتداخل في الأشياء خائفاً يترقب. "..."، وشعر بنفسه مطارداً ليس فقط من الذين يبحثون عنه) ص9/ الوكر، عبد الرحمن مجيد الربيعي، دار الطليعة .بيروت، ط1، 1980: (وقال همام: -لن أغادر العراق حتى لو علقوني. سأظل هنا حتى لو اضطررت إلى الاختفاء في أحد الأوكار الحزبية) ص81/ الزهر الشقي، عزيز السيد جاسم، مكتبة اليقظة العربية .بغداد، 1986: (قبل عامين رأيت مهدي – صديقي العامل الذي مات هو أيضا – هاجر إلى أماكن عديدة.. وتشرد، وسجن كثيرا.) ص36. وانظر روايات: تماس المدن، نجيب المانع، دار الرشيد، 1979/ الأيام الطويلة ج1، عبد الأمير معلة، وزارة الثقافة .بغداد، 1981/ الزمن الصعب، ج1، عادل عبد الجبار، دائرة الشؤون الثقافية .بغداد، 1985...

(5) المقرّب: (أن مستوى ما قبل الكلام هو الأكثر توظيفا في الروايات الحديثة، والسبب عدم خضوعه للمراقبة والسيطرة والتنظيم.)/ أصول سردية قادت إلى اكتشاف تقنيات "تيار الوعي" .تيار الوعي في السرد ليس الذكاء ولا الذاكرة بل الانتباه الذهني، نادية هناوي، العرب . صحيفة، لندن، 24/ 3/ 2024، ص10.

(6) من أوائل رواياتنا الأيديولوجية، الشهيرة جداً، هنالك: اليد والأرض والماء، ذو النون أيوب، مطبعة الرشيد . بغداد، 1948. سألته باسمة بصوتها العذب: "إذن فأنت أيها الأستاذ تحاول أن تكون إقطاعيا (...)، (...)؟". فأجاب ماجد: "إني أحاول أن أكون إقطاعيا (...)". وقال الدكتور: "إنه كعادته إذا أراد أمراً مد يده لتناوله، (...)". فقالت سنية: "(...). وعلى كل فتجربة الأستاذ (...) ذات فائدة عظمى، وأرجو ألا تقدم له الثروة في طبق مملوء بالماء أيضا". فقالت هيفاء لماجد: "الأستاذة مولعة بدراسة الاقتصاد وفنونه، حتى أصبحت لكثرة تعمقها في هذا العلم تتكلم من دون أن يفهمها أحد، فأصبحت بذلك قاب قوسين أو أدنى من تهمة الشيوعية"./ مطبعة شفيق . بغداد، ط2، 1970، ص: 82. 83.

(7) منازل العطراني، جمال العتابي، الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق .بغداد، ط1، 2023، ص5.

(8) م.ن. فلو قوّله: أنقذتني .وجدتْ، هنا، لأبقاه شخصية واحدة.

(9) م.ن. قبله، حوارهما هذا، ثمة: < يلمحك (صالح كيطان) أحد أصدقائك القدامى فيسرع في مناشدتك للانسحاب من التظاهرة بسرعة> م.ن.

(10) في رواية لـ"جهاد مجيد"، مثلًا، ثمّة استهلال لسارد داخلي بتيار وعي: أسعى للقاء بهم، "..."، في داخلي قوى خبيثة، هذا هو يومك؟ أهذا هو الميعاد الذي تؤكد أقوالك؟ قناعاتك؟ لمن تؤكد؟ لنفسك؟ للآخرين؟/ تحت سماء داكنة، مكتوبة سنة 1979، ضمْن: الأعمال الروائية، دار الينابيع .دمشق، ط1، 2010، ص285.

(11) منازل العطراني، جمال العتابي، م.س، ص11.

(12) م.ن، ص: 19. 20. (نعم أنا أدرك أن مداً هادراً سيكتسح البلاد طولاً وعرضاً، ستغدو الأيام المقبلة مرعبة.)/ م.ن، ص20.

(13) (إذ كان يشغلني انحسار النور في الفضاء، كنت أترقب الظلام.)/ م.ن، ص25.

(14) (يتمنى لو نام دهراً في مكانه هذا شرط عدم اكتشاف مخبئه)/ م.ن، ص30.

(15) م.ن، ص: 32. 33.

(16) ممّا ورد فيه، هنا، عن هذه المدينة المجهولة: (دروبها ملتوية، البيوت عالية ملساء الجدران "..." لا شرفات "..." ليست ذات أبواب وشبابيك! "..." كيف يدخل أهل المدينة بيوتهم ويخرجون منها؟ "..." لم أصادف أحداً مرّ بي.)/ م.ن، ص33. نعمْ يحدث هذا لـ(البطل) ضمْن الرواية الأيديولوجية، خصوصًا، في تياره الواعي، على الأغلب، أمّا في سرده الداخلي فلا، مثلًا: (كنت أجهل أهمية أفكاري للحزب. "..." .مدينتنا يحيطها الهواء البارد خارج أسوار الحديقة والناس فيها يلجؤون إلى المدافئ.)/ رجال في ليل المدينة، سليمان البكري، اتحاد الأدباء والكتاب في العراق / دار الشؤون الثقافية العامة .بغداد، ط1، 2008، ص9.

(17) (رفعت عينيها فرأت صدر محمد يعلو ويهبط بسرعة)/ منازل العطراني، م.س، ص46.

(18) م.ن، ص50. ثم يعود السرد خارجيًا: بينما سارعت أمّه في مناشدة خالد بالكف عن الكلام/ م.ن.

(19) م.ن، ص60. كذلك ضمْن المقطع السادس عشر: (يبلغ اليأس ذروته لديه فيحدث نفسه: العمر يمرّ يا محمد.)/ م.ن، ص89. في الرواية الأيديولوجية، خصوصًا، من أبرز سمات تيار الوعي عند (البطل)، تحديداً، حين يخاطب آخره، أيْ قرينه هنا، فيذكر اسمه بكلا السردين: الداخلي (حقا حدث ما لم يكن متوقعا أن يحدث. "..." . ولكن ليس هذا ما أريد أن أفكر به الآن. "..."؟! أيحدث هذا!.. أبدا.. ولم هذا الجزم يا سلمان العبد؟)/ العناكب، نعمان مجيد، الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق . بغداد، 2007، ص7 _ الخارجي (انسحب وائل بهدوء، "..."، شعر بوهن في قواه وقلق يعصف بأعماقه. "..."؛ "أين إرادتك يا وائل.)/ خطوط مائلة، حسني الناشي، شمس للنشر والإعلام .القاهرة، ط1، 2017، ص24.

(20) (قد تترك هذه الأخبار في نفسك ذكرى مؤلمة، غادرها. "..."، اترك كل شيء وراءك. "..." فلا تنظر إلى الخلف أبداً.)/ منازل العطراني، م.س، ص73.

(21) م.ن، ص: 82. 83.

(22) م.ن، ص: 113. 114.

(23) (حتى أطفاله الصغار يسألون أمهم من القادم؟)/ م.ن، ص126.

(24) م.ن، ص129.

(25) (لدي قناعة أكيدة أنك تشاركني هذا الشعور، تبحث معي عن خلاص، أليس كذلك؟)/ م.ن، ص132.

(26) (لا يكف عن التلميح باستبداد السلطة مع زملائه العمال.)/ م.ن، ص136.

(27) (كانت كل هواية تتملكه زمناً تنمّ عن فهمه للأشياء، استغراقه فيها حد التلاشي.)/ م.ن، ص139.

(28) (_ سأتدبر أمرهم لا تقلق! تحملنا الكثير عسى أن تفرج؟)/ م.ن، ص142.

(29) (كانت لديه مخاوف من مفاجآت الطريق.)/ م.ن، ص151.

(30) (في اللحظات الحاسمة ترددت كان ذلك يضعني ضد أسرتي.)/ م.ن، ص160.

(31) م.ن، ص253.

(32) آخر تيار وعي فيها قُبيل استغلاق مقطعها الحادي والعشرين: (في الطريق إلى البيت أفاض محمد في التحديق "...": "..."، ها أنت في المدينة تركت وراءك الريف، "..."، هاجمتك الشيخوخة مبكراً، استوطنت الأمراض في جسدك، "..."، عن أيما هدف تبحث الآن، "..."، لقد لازمني التعب، كيف أواجه أهلي بهذا الحال؟)/ م.ن، ص115.

قصة قصيرة

شجرة ذابلة.. وردة عطرة

حسب الله يحيى

(1)

السيدة (نور) تحبك.

هذا أمر لا شأن لك به..

لكن كل شيء يؤكد حبها.

لا عليك من الأمر.. أنت رجل عجوز.. أقدامك تقودك إلى التراب.. أما قدماها فتقودانها إلى الحياة.

لكننا من مادة واحدة، من تراب، سواء كانت هي الشمس وأنا القمر.

أنت ستنطفئ.. وهي ستظل مشرقة.

لكنني أملك ما ينفعها ويحمي شبابها.. أملك خبرة السنوات؛ سأوفر عليها عثرات الزمن.

بل ستكدّر خاطرها وشبابها ومستقبلها.. ستطفئ وردة عمرها وهي تتكئ على عجوز مثلك.

لكنها.. مع ذلك تحبني.. ربما هذا من طبع شبابها المفتون بحكمة الشيخوخة.. وربما تعدُّك رجلاً مثالياً في حسن تعاملك مع الآخرين.

أنا لم أميزها عن سواها، ومع ذلك اختارتني للبوح بأسرارها.. ربما لم تجد من هو جدير بالثقة وكتمان الأسرار.. وهذا لا يعني أنها تحبك، ولا يعني لك استغلال هذه الثقة واستثمارها لصالحك..

أنت رجل صهرته الحياة، وجعلت منه رجلاً حكيماً.. فلا توظّف الحكمة للتلاعب بعواطف هذه الشابة، لمجرد أنها تتعامل معك بشكل استثنائي عن سائر الموظفين.

أنا مديرها، وفي الوقت نفسه طوع أمرها..

المدير.. يدير العواطف بأحكام العقل، لا بغلبة الرغبات.

أنا لم أميزها عن سواها..

تكذب.. تكذب.

مرة قلت لها صباح الخير والمحبة، عندما حيّتك بكلمتي: صباح الخير.

لم أضفت كلمة ثالثة.. اخترتها بدقة (المحبة) وأنت لم تقلها لأحد سواها!

ومرة قلت لها: اللون الوردي يليق بك .. وعندما ابتسمت، تجرأت وقلت لها: الوردي لا يرتدي إلا الورد.. أليست هذه عبارة غزل ياعجوز ؟!

ومرة أخرى أوصلتها بسيارتك إلى منزلها.. وتبادلت معها الحوار والضحكات ومرة دعوتها لتناول القهوة معك، وهذا لم تفعله مع أي زميل أو زميلة يعملان معك.

أنت تستميلها وتلعب بعواطفها الشابة يارجل.

(2)

السيد (صفاء) يحبك.

هذا وهم يا امرأة.. لكن كل شيء يؤكد على حبه رجل عجوز يجر قدميه إلى قبره.. وأنت شابة كل الطرق مشرعة أمامها، القبور للمرضى وللأقدار، وهو رجل في كامل عافيته، وليس له إشكال مع احد.. ولا أحد من الزملاء والزميلات يشكو منه.. فهل هذا سر الجاذبية فيه.

لكنك امرأة متزوجة ولك أبن وأبنة.. هذه خيانة.

وهو عجوز له زوجة وأبناء.. هذه خيانة.

الخائن.. من يخون نفسه، وأنا لا أخون.. وهو لا يخون كذلك.

أحسُّ أنه الأقرب إلى قلبي وعقلي.. كيف، ما الذي أعجبك فيه.. هدوء طبعه، حكمته، احترام الآخرين له.. واحترامه لنفسه.

هل يكفي هذا للحب.. أهذا سبب مقبول ومعقول ومنطقي ؟

أقارنه بسواه، فترجح كفته، أقارنه بزوجي، فترجح كفته كذلك.

زوجك أجمل، زوجك في كامل شبابه.

فهه.. زوجي، كان شكل الرجل وشبابه.. هي الصفات التي تبحث عنها كل امرأة!

هذا خطأ.. الخطأ يكمن في القبول السريع بالزواج.

سألته عن هذا الأمر، قال: الزواج جسر بين عالمين، فإذا لم تنتبه هذه الضفة إلى أسرار الضفة الأخرى، فإن هذا الجسر سينكسر.

أسرعت وقلت : وقد انكسر.

قال: لا تتعجلي.. بين الضفتين قارب يقوده إلى ضفة الأمان أبن وأبنة.. أليس كذلك يا (نور)؟ وإذا انكسر المجذاف .. مجذافهما معاً..؟

المجاذيف لا تنكسر، إلا بالاستخدام الخاطئ.

لكنهما يتقنان التجديف ويعرفان السباحة.. إنهما يصلحان بيني وبين زوجي في كل لحظة غضب أو مشادَّة كلامية.

لكنه.. هو، هو هذا الرجل الذي يعطي للصباح رونقه وعطره، بكلمات تطيب لها النفس.. إنه يضيف إلى خير الصباح.. محبة.. فما أسعدني، وما أسعده.

ومن قال لك أنه سعيد لسعادتك به..

نظراته، رقته، حديثه الشفاف، وطعم قهوته.

هذا ما يخيل إليك، ما ترسمينه لنفسك، وتعمدين إلى إقناع ذاتك به.

(3)

في كل الليالي؛ يطفئ المصباح.. حتى يراها ويحتضنها ويقبلها ويقصُّ لها أجمل الحكايات.

في كل الليالي، ومنذ عرفته، راحت تفكر به.. ويسحرها أن يكون إلى جانبها يضيء عتمة الغرفة.. كان هو المصباح الوحيد الذي يضيء قلبها.

قال.. إنها مشغولة بزوج وأبن وأبنة.. قال إن للبيت أسراراً.

قالت إنه غير معني بها، فله عالمه وكتبه وامرأته وأبناؤه.. وللعائلة أسرار.

تنام وهي بانتظار الصباح، ينام وهو بانتظار الوصول إلى الدائرة بكامل صحوته.

لكنه يصل وهو لم يصحُ منها منذ ليلة الأمس.. وتصل وصباحها عطر بوصوله قبلها.. حتى يستقبلها بإشراقة ابتسامته.

ابتسامته منكسرة هذا الصباح.. ما بك ؟ تسأله

لا شيء، يقول تقرأه

رأها شاحبة.. أنت، أنت.. ما بك ؟ يسألها

لا شيء يقول.. ملامحها تبوح

وما بين القراءة والبوح.. هناك خيوط مرئية، ليس لأحد معرفتها.. سواهما

تناوله قرصاً مهدئاً.. أعرف إنها نوبة صداع

يمسك أصابعها.. كم عذب هذا الماء.. أكنت تقطرينه يا (نور)؟

تضحك.. بل هو من ذائقتك

تهمس بشرود.. زوجي، أشعل له الشموع.. فيطفئها.. زوجي كدر كمثل ماء لم تصفُ قطراته.

يهمس لنفسه.. زوجتي طيبة ونبيلة.. لكنها لا تحسُّ بطبع من تشغل باله امرأة أخرى.. تقول: الرجل مثل الحمام، لابد أن يعود إلى عشّه، إلى قفصه.. وما درت أن من طبع الحمام.. أن يختار حريته، يقول لها.

تجيب: سيتبه، هناك من سيسجنه في قفص غريب بعد أن يقص جناحيه.. وما أن يعود له جناحاه، حتى يعود إلى بوصلة عقله، ويختار عشَّه الأول.. زوجة.. تطمئن نفسها.

لكن (نور) تقول: ليس من طبعه أن يراني، كما لو أنني كنت حجراً ساكناً في سور بيته العامر.

أكان لزاماً عليها.. أن تحبه .. قسراً ؟

أكان لزاماً عليه.. على (صفاء) أن يكره امرأة حفظت ودَّه في كل السنوات العجاف، وفي كل الابتسامات الضئيلة ؟

أكان عليهما، أن يفكرا بطرق مختلفة ؟

(4)

في منزلها.. تنبهت إلى أن شجرة اللبلاب قد نمت سريعاً..

أكان ضوء الشمس سبباً في نموها ؟

في منزله.. تنبه إلى أن شجرة الورد الجهنمي قد ازدهرت بكثافة .. أكان عدم سقايته لها نوعاً من التمرد على جفاف تربتها ؟

اللبلاب بخضرته اللامعة ونشاطه الباذخ تسلّق شباك نومها.. فيما امتد الورد الجهنمي إلى الجدار الخارجي للمنزل..

وكان ما بين النمو العاجل والازدهار البهي، عواطف سريعة تأخذ مساحة من القلب، وقدراً من الذاكرة.

سألته: هل بحت بشيء لشجرة اللبلاب ؟

سألها: هل ألقيت تحية سحرية على شجرة الورد الجهنمي من بعيد ؟

قالت: كانت أنفاسي قريبة منها.. من نافذة غرفة نومي.. أكانت للبلاب حواس مثلنا ؟

ابتسم قائلاً: وجد الورد الجهنمي أن في قلبي وردة كما لو أنها جمرة تضيء!

كانا يتحدثان برمزين، لا يفهمهما سواهما..

اخضرت كل الرموز، باتت واضحة وصريحة.. تنفست حقائقها المشتركة.

لا عليك من شيخوخته.. الشيخوخة حكمة ووقار.

لا عليك من شبابها.. الشباب حيوية وانطلاق.

وما بين الشيخوخة والشباب؛ صارت الأحلام الوردية ترسم عوالمها في نفسيهما، حتى بات صداها يملأ أفق العالم كله.

مضى الزمان، وتغير المكان.. صار لكل منهما مناخه، ولكل منهما عوالمه.

أما الزمن؛ فقد أحاله إلى التقاعد من وظيفته.. لكنه رفض أن يقال له (متقاعد) ذلك أن الكلمة تعني بالنسبة إليه (مت.. قاعد) وهو لا يريد أن يموت لا واقفاً ولا قاعداً، فالحياة في مخيلته .. وردية عطرة.

أما المكان، فقد اجتاز قدره منزوياً في دائرة بعيدة عن ذاك المكان وذاك الزمان.

اتسع المكان، وصارت المسافات تتسع، فيما وجد الزمان أيامه وقد ذبلت، وبهاء ساعاته وقد أبطأت مسار عقاربها.

لم يعد الهاتف يكفي، ولم تعد الأيام تكتفي بالذكرى.

وفي عالمه، أن حباً بني على الصدق؛ لا يمكن أن يأفل، ولا أن يصاب بالصدأ.

الأفول من طبع الجفاء، والصدأ من طبع زمن مَر..

ولم يكن هناك جفاء ولا صدأ بينهما..

(5)

كان يزورها في أوقات متباعدة.. وكانت تقول : ربما شغلته

الحياة، وأثقلته البطالة ووطأة الكسل واللامبالاة.. ربما استيقظ فيه حسُّ من التأنيب في حب يتيم، مقطوع الجذور.

وعندما كان يصطفي نفسه تحت ظل شجرة الورد الجهنمي، كان يخاطب نفسه: الغياب آفة تنخر في الزمن.. أكان هذا الغياب.. قطيعة بينهما؟ لا شيء يدل على هذه الظنون كلها.

زارها.. احتفت به، وجد أن جدران الدائرة تزهو.. وأن الأوراق في أصابعها.. أوراق لبلاب دائم الخضرة.

احتل الصمت، بعض الوقت.. ولم يكن للصمت وقت بينهما.

فجأة كسرت الصمت قالت: لا بد لعلاقتنا أن تنتهي.. لا أجد في نفسي القدرة على التفكير في هذه العلاقة.. كانت الكلمات تأتي إلى صفاء أذنيه باندفاع وقسوة، كما لو أنها حجارة ترمى في وجهه.

عجز عن الإجابة، اقتنع قناعة كاملة بأنها قد اتخذت قرارها وحسمت الأمور ولم تعد هناك ضرورة لأي كلمة يمكن النطق بها.

لم يناقشها، لم يسألها إن كان قد أخطأ في حقها، إن كانت قد سمعت ما يسيء إليها، إن كانت مخطئة في علاقتها به كل هذا الزمن.. إن كانت قد أدركت بشيخوخته وانطفائها، فيما هي في عزّ شبابها وألق حضورها..

المفاجأة.. كتمت صوته، وجعلت حنجرته تجفُّ، وفمه ملصق الشفتين.

مع السلامة .. قالها على عجل، وترك كرسياً كان يعتقد أنه يرحب به، مشى أحس بقدميه لا تسعفانه على المشي، إلا أنه تعامل معهما بصرامة وألزمهما على حمله.

كان الطريق مليئاً بالعثرات، وكان الذّل والمهانة تأخذ بذهنه.. كان قلبه ينبض بشكل غريب.. أفكاره مضطربة وأنفاسه ثقيلة.. وخطواته ضاعت من أوامره، وباتت تقوده إلى حيث تشاء، لا حيث يشاء.

غيوم سوداء ملأت عينيه من دون أن تمطر دمعة، كأن مطر الدموع قد اكتفى بالغيوم، ترى.. أكانت الغيوم مخادعة، أكان كل ما كان مجرد حلم.. مجرد نسمة مرت، ثم هربت.. أو ماتت، أو غادرت هذا العالم الذي بات عصياً على الفرح؟

(6)

يومان من الجفاف مرّا، كما لو أن الزمن كان مكبّلاً فيهما بكرات من الصلب.. يومان لم يدرك أنهما في خارطة الوقت.

ولم تكن السلامة تلقي بظلالها على حياتها..

في هذه المرارة الثقيلة على أنفاسها.. جاءت مرارة أخرى، حطمت آخر امرأة موجودة فيها، آخر كائن يمكن أن يفكر بالحياة.. جاءها نبأ وفاة والدها العليل بذاك المرض.. المرض الذي ينخر في الكائن من دون أن يكون المرء شجاعاً ليقول إسمه.

فجأة وجدت نفسها أمام امتحان وتمرد واضطراب، ثم قرار.. رَن هاتفه قبل منتصف الليل بقليل، ولم يكن من طبعه البقاء ساهراً ولا من طبع أصدقائه أو معارفه مهاتفته في هذا الوقت.

(صفاء).. والدي مات.. لم تنتظر حتى كلمة ترحيب (ألو..) لا وقت للانتظار ثلاث كلمات، كانت أشبه بثلاث صفعات على وجهه.

لم يعرف ما يقول، هل يرثيها ويكتفي بالرحمة على والدها، هل يتوجه إليها أين هي الآن، الأمر صعب.. سيكون حضوره غريباً عجيباً، فما علاقته بالفقيد، وما علاقة الفقيد به ؟!

واساها.. بكى لبكائها.. أحس أن فقدان الأب.. ظلام، فيما كان أحساس الإنسان الذي فيه.. يرتاح، يحسُّ باستعادة أنفاسه بأن حباً كان.. ودعه جفاء عاجل ومفاجئ، وأعاده موت، لا يريد أن يسكن التراب ويدفن.. وما كان ، كان ..

انتابه شعور متناقض.. بين ألم موجع لموت، طلق علماء الطب علاجه، وحب خذله الوقت وكسر ألقه.. ليعود كما الضوء حين ينطفئ ثم يعود.. يعود مثل عيد، أبى أن يغادر موعده.

فيما كانت (نور) تجد نفسها في سكينة وراحة، وهي تتوجه بالخبر إليه.. إليه، قبل كل الأقارب، قبل أن يبرد الموت.. قبل أن يكون الموت قطيعة مع الحياة.

كانت غير نادمة على ندائها الهاتفي، كانت غير تلك المرأة التي تمردت على قلبها.. أحست أنها منسجمة ومتفقة وعلى وفاق تام بينها وبين عقلها وقلبها..

14/2/2024

مراجعة

هذا الكتاب الخلّاق يشكل لنا الحياة اليومية بتصورات موضوعية كما كانت سائدة في بابل وآشور قبل 3000 سنة وهو لا يفعل هذا اعتمادا على خيال تقويمي وانما بالاستناد على بناء متكامل العناصر وشديد التوثيق. مؤلف الكتاب الدكتور هاري ساكز هو استاذ اللغات السامية في جامعة لندن وعمل تدريسيا في جامعة بغداد لسنتين كما نقّب بمناطق عدة في العراق وهو يمتلك رؤية عميقة لما كانت عليه الحياة في بابل وآشور. كتاب مدهش بكل تفاصيله فهو يعطينا صورة وافية عن اعجازية الحضارة العراقية ومدى التطور الهائل في كل صنوف الحياة. انها قصة جميلة ومؤثرة عن حضارة علّمت البشرية

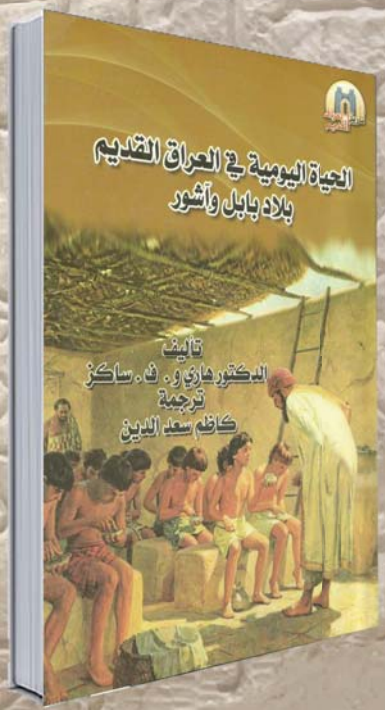

الصباح الثقافي
رئيس التحرير
أحمد عبد الحسين
www.alsabaah.iq
ملحق اسبوعي 16 صفحة
الأربعاء 24 تموز 2024 العدد 5972 Wed. 24 . Jul. 2024 Issue No.